الإمام موسى الصدر

السيرة والفكر

١٩٦٩ - ١٩٧٥



عدنان فحص



توزيع دار الفكر العربي
بيروت

الإمــــام الـصـدر

السيرة والفكر

١٩٦٩ . ١٩٧٥

الإمام الصدر

السيرة والفكر

١٩٦٩ - ١٩٧٥

عدنان فحص



دار الفكر العربي

بيروت



كورنيش سليم سلام - مقابل مخفر المصيطبة
بناية الشروق - الطابق الأول
ص.ب. ٥٠٧٠ / ١٤ - بيروت لبنان

الطبعة الاولى ١٩٩٦

باسمه تعالى

المقدمـــــــــــــــة

إنها ذكريات عبارة عن أفكار خاصة حية في الذاكرة أذكرها كما رأتها عيناي بعيداً عن التكلف والتصنّع. لقد كان تسجيل الملاحظات موضوعياً لإعطاء القارىء فكرة أولية عن شخصية الإمام السيد موسى الصدر وطريقة عمله وخلاصة تفكيره خلال مدة تمتد من عام ١٩٦٩ إلى عام ١٩٧٥.

لقد استلمت دائرة الأوقاف والشؤون المالية عام ١٩٧٠ في هذه السنة التأسيسية من حياة المجلس. كان اجتماع اللجان وخصوصاً اللجنة المالية مرة أو مرتين في الأسبوع بالإضافة إلى محاضرات واجتماعات عمل وندوات فكرية بالإضافة إلى أحاديث مطولة كانت تطرح للاستماع إلى رأيه وتحليلاته ونظرته والمفاهيم التي يؤمن بها على صعيد المجلس وعلى الصعيد اللبناني العام.

على صعيد العمل والوظيفة كانت الصلة تعتمد على حسن سير العمل في المجلس وطرق العمل والمشاكل العملية الطارئة... نراه يناقش أدق الأشياء ويسمعها ثم يعطي التعليمات اللازمة، الأحداث السياسية الهامة لا تدخل في هذا النطاق لأن أكثرها كان خارج المرحلة التي نتحدث عنها وهي كما قلنا تنتهي في منتصف عام ١٩٧٥. ثمة طريقة عمل وتفكير وحياة وسيرة عامة

تستحق الكتابة والعرض بعيداً عن السياسة.

إن شخصية الإمام في نظر مؤيديه شخصية فذة تعتبر نموذجاً بارعاً للشخصيات الفاعلة في التاريخين الإسلامي واللبناني... إن اللبناني إلى أي جهة انتمى أو إلى أي تيار انتسب يستحق أن يعرف شخصية الإمام وجوانبها الفكرية والاجتماعية والإنسانية بعيداً عن السياسة وتعقيداتها.

وفي هذا الرصد السريع لا نقوم بعمل تحليلي لشخصية الإمام... بل نعرض مجموعة أخبار وبعض المعلومات والأفكار شاهدتها وسمعتها كما هي بعيداً عن التحريف بأسلوب واضح وبسيط... لقد كنا في المجلس نشير للإمام بكلمة «السيد» لكونه ينتمي في نسبه إلى النبي عليه السلام.

إن السياسة التي مارسها الإمام من عام ١٩٦٩ ـ ١٩٧٥ كانت سياسة اجتماعية تهدف إلى تحقيق نتائج اجتماعية، وكانت السياسة مرحلة محدودة للوصول إلى مطالب حياتية للفئات المحرومة. نذكر أنَّ المراحل السياسية في ذات الفترة كانت في جوهرها مطالب مشروعة لتحقيق فوائد اقتصادية واجتماعية وصحية ولا يخلو الأمر في بعض الأحيان من التحرك السياسي لرفع الظلم ومقاومة سلطة الإقطاع السياسي الذي تدخل في أمور تخص المجلس وتخص انتخاباته وصلاحياته بالنسبة للأوقاف وغير ذلك.

أعتذر من القراء الكرام في عدم اتباع السياق التاريخي في سرد الوقائع وهذا يعود إلى أن أكثر الوقائع والمعلومات الواردة هي من مخزون الذاكرة في المدة التي تتراوح ما بين ١٩٦٩ ـ ١٩٧٥.

هذه الذكريات التي نسجلها بالإضافة إلى عرض الواقع اللبناني قبل الحرب .من الناحية الاقتصادية والاجتماعية تتسلسل بالوصف الواقعي والموضوعي، وهي تكشف لنا الخطوط الواقعية والخيالية التي تسود التاريخ اللبناني في هذه المرحلة.

كان الإمام السيد موسى الصدر يحب لبنان وطن المحبة والرجاء ولا شيء يزعزع إيمانه، يضاف إلى ذلك نقد الذات الذي كان يلجأ إليه لكي يعود إلى حقيقة الأشياء وحجمها الواقعي.

في الفصل الأخير نتحدث عن الآثار الفكرية لدى الإمام ومقتطفات من محاضرات إسلامية ومحاضرات اجتماعية وتاريخية وعامة. بقي أن نشير أن دقائق الفكر الديني الإسلامي لدى الإمام يحتاج إلى باحثين دينيين لتحليل وشرح عنصر التجديد في تراث الإمام الفكري والديني.

الإمام الصدر من عائلة أصلها من جبل عامل ارتبط اسمها بالعلم الديني والتقدمية والثورة على الظلم.

ابن عمه السيد محمد مهدي الصدر كان من قادة الثورة العراقية، ووالده السيد صدر الدين الصدر قاد في شبابه حركة دينية تقدمية وارتبط اسمه باسم النهضة الأدبية في العراق ثم هاجر إلى إيران.

ولد الإمام السيد موسى الصدر في مدينة قم، وبعد أن أنهى دروسه الدينية والشفهية ودراسته الجامعية في كلية الحقوق في جامعة طهران استقدم إلى صور، في أواخر سنة ١٩٥٩ رعى جمعيات اجتماعية وثقافية عديدة، وأنشأ مؤسسة مهنية فنية عالية في البرج الشمالي، وعمل على مكافحة الأمية والتشرد، وألقى المحاضرات في الجامعات والأندية وفي المؤتمرات الإسلامية، وفي ٦٧/١٢/١٩ صدر القانون رقم ٦٧/٧٢ بتنظيم شؤون الطائفة الإسلامية الشيعية التي انتخبت الإمام الصدر رئيساً لمجلسها المنشأ بموجبه.

عدنان نجيب فحص

ـ النبطية ـ

تمهيد:

كان ذلك في الخامس عشر من شهر أيلول عام ١٩٦٩ عندما كنت أحزم الحقائب وأهيء نفسي للسفر إلى باريس لمتابعة الدراسة عاقداً العزم على العمل والتحصيل العلمي في مدينة العلم التي تكتحل العين برؤية مؤسساتها العلمية الضخمة، والتي كنت قد رأيتها وعرفت الكثير عنها وخاصة أصحاب المواهب العلمية والأدبية والفنية...

وفي خضم تلك النهضة كانت شعلة الحضارة، تكاد تنطفىء في بلدان المشرق لشدة السيطرة والتأثيرات السياسية والحزبية والطائفية... حتى أن هناك من يتغنى بالحمق والجهل... وفي ذات الوقت يحصل على وظائف بدل وظيفة واحدة... وعلى الامتيازات بدل امتياز واحد، حتى يكاد المتعلم يختنق بعمله ويذوب خجلاً من اختصاصه الذي أوقعه بين الجهالة والتخلف، بين مطرقة الأولى وحديد الثانية.

لقد كنت مهيأً للسفر وإذ بي أعلم بأن هنالك وظيفة رئيس دائرة في الدولة، ملاك رئاسة مجلس الوزراء في المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى فقررت الاتصال بالمجلس وسؤاله عن الموضوع.

ذهبت إلى المجلس للمرة الأولى وهناك دخلت القاعة وحييت الحضور جلست بالقرب منهم... وإذا بي أرافق بهمسات عن هذا القادم وماذا

يريد؟... ونظرات يدفعها حب المعرفة إلى سؤال السكرتير في المجلس، أتعرف هذا الشاب؟ هنا يتقدم مني السكرتير باسماً... سائلاً: حضرة الأستاذ ماذا يريد...؟ لقد غاب السكرتير برهة وعاد ليقول لي بأن «السيد الإمام موسى الصدر مشغول» بعدها عنده مواعيد مسبقة مع شخصيات أخرى، هل تحب أن تنتظر...؟ أجبته بإشارة بأني ـ أنتظر... وكان هذا الخليط الموجود في القاعة ينثر الأحاديث العامة والأفكار والآراء الشخصية عن واقع لبنان والطوائف اللبنانية... يريدون تمضية الوقت للوصول إلى الوقت المحدد لمقابلة «السيد».

دخلت إلى مكتب السيد وفي مجلسه بعض المشايخ والأصدقاء، دخلت وأنا مرتبك وزاد من حدة الارتباك، نظرات خفيفة وحادة أحياناً، وأنا لا أعلم السبب. هل أنا أسأت التصرف مع بعض الشيوخ الأجلاء؟ هل أن وجودي «حليقاً» هو السبب المباشر؟ هل كان أحد المشايخ يرى في عيني أشياء... تثير الدهشة؟

في هذه اللحظات تقدمت إلى كرسي ملاصق لكرسي السيد، العالية، وسألته بصوت منخفض ووشوشة غير مسموعة من الآخرين، سمعت بأنكم تريدون رئيس دائرة مالية وأوقاف؟ أجابني السيد: نعم نريد رئيس دائرة مالية وأوقاف والشروط المطلوبة هي: إجازة في الحقوق ودراسات وخبرة في الشؤون المالية أو شهادة مالية... ثم نظر إليّ قائلاً: ما هي الشهادات التي حصلت عليها وما هي خبرتك لكي تقدم إلى لجنة التنظيم والإدارة؟.

أوضحت ما عندي من الأوراق الثبوتية، ثم بدأ السيد يفكر ويفكر في الموضوع قبل طرح أي سؤال... ثم قال: عليك تأمين الأوراق والمستندات إلى لجنة التنظيم والإدارة لكي يكون موقفنا قوياً قال هذا... وكنت متيقناً في قرارة نفسي بأن القضية تتجه نحو بقائي في لبنان وإيقاف سفري مرحلياً إلى

باريس. وفعلاً صدر مرسوم بتعييني بتاريخ ١٩٦٩/١٢/١٩ كرئيس دائرة في المجلس. ثم صدر قرار التعيين كرئيس دائرة للشؤون المالية والأوقاف.

عند بداية العمل شعرت بصعوبات كثيرة وخاصة القضايا المالية. وكان السيد يراقب عن كثب جميع الأعمال ويطلع على المستندات ويعطي الملاحظات اللازمة.

وذات يوم بينما كنت أضيع في خضم هذه المشاكل العملية والتطبيقية، اتصل بي السيد قائلاً: إن المستند، الفلاني، ينقصه الكثير قبل إحالته للرئاسة للتوقيع... ثم سألني: هل تريد اعتماد طريقة معينة للمحاسبة في المجلس؟

هل هناك دفاتر حديثة ومعتمدة يجب استعمالها...؟ فما كان مني إلا أن أجبت بسرعة غير محمودة وثقة بالنفس غير مشكورة، هناك لجنة من أعضاء المجلس هي التي تدرس الموضوع... فأجابني فوراً: اللجان مقبرة الأعمال والإنجازات وإن كنت تعتمد على هذه الطريقة فعملنا سوف يستغرق سنوات بدلاً من الشهور ومعظم أعضاء اللجنة هم أصحاب أعمال كثيرة ووقتهم محدود جداً...

لا بد من ذكر كلمة عن النظام المالي والمحاسبي للمجلس، وكان قد كلف به الخبير المالي والمحاسبة السيد علي عواضة. كانت اللجنة مؤلفة من شخصيات مالية وحقوقية وقضائية، وكانت الجلسات تستغرق من ساعتين إلى ثلاث ساعات في الأسبوع، وأحياناً أكثر، كان السيد يناقش المواد مادة مادة واحتمالات التفسير والتأويل وواقع الوضوح في النص، والتفسيرات القانونية لبعض المواد بالإضافة إلى مشاركة أعضاء اللجنة المالية.

أما بالنسبة إلي فقد كنت أستمع وأنتبه أكثر مما أتكلم ككل مبتدىء في مهنة جديدة، ولولا نعمة الصبر كالذي يسمع كثيراً ويتكلم قليلاً لئلا

تتوجه الأنظار إليه ويقع في متاهات المحاسبة وأصولها وفروعها، كان الاستماع في هذه الظروف فضيلة وميزة ونعمة وإحسان لكاتب هذه السطور... لأن الخبرة مطلوبة، فالأساتذة من أعضاء اللجنة لديهم خبرة تفوق عشر سنوات وأكثرهم خمس عشرة سنة... ومن كان يملك خبرة أسابيع كيف نطلب منه المزيد من الغوص في هذه المواضيع، وهو حديث العهد في الشأن المالي ومشاكله؟ كان السيد يعرف بأني أحمل ثقافة وعلوماً نظرية في الشؤون المالية والاقتصادية. وكان قد قرأ بضعة مقالات لي في إحدى الصحف الفرنسية الصادرة في لبنان... حول قضايا التخطيط الاقتصادي، وحول قضية الخطة الخامسة الفرنسية، وقضية العدالة الاجتماعية، ولكن الأبحاث والتحليلات الاقتصادية والمالية تختلف عن الأنظمة المالية للمؤسسات الخاصة والتي تحتاج خبرة عملية وتطبيقية في هذا المجال. لقد استغرقت دراسة مواد النظام المالي أكثر من ستة أشهر، وكان السيد وأعضاء اللجنة يتابعون باستمرار حضور الجلسات ولا أذكر غياب السيد عن حضور اللجنة إلا نادراً إذ كان يتوق دائماً إلى استمرار جلسات التقرير والتنفيذ بإشرافه وحضوره. وأذكر بأنه في أحد الاجتماعات حضر أحد السادة المشايخ وأخذ يستمع للكلمات التقنية والتعقيدات في المصطلحات العلمية، فما كان إلا أن غادر القاعة إلى مكان آخر في ساعة متأخرة من الليل.

بعد انتهاء دراسة النظام المالي والموافقة عليه بنداً بنداً، تحول النظام المالي إلى رئيس الدائرة المالية للتنفيذ.

وبعد الاطلاع على المستندات المالية والمحاسبية المعتمدة في وزارة المالية وجدته نظاماً يصعب تنفيذه في مؤسستنا. لأنه معد لمؤسسات تختلف عن المؤسسات الخاصة، كما أني درست بعض القوانين المالية لبعض المؤسسات الخاصة لاستخلاص طريقة ممكنة التنفيذ وفي ذات يوم اتصل بي السيد

وأبلغني بأن التنفيذ مسؤوليتي وحدي وتقع على عاتقي، ويرغب في الاطلاع على طريقة التنفيذ ولا لزوم للتأخير وانتظار مساعدة أحد... لقد تقدمت بمشروع مبسط للتنفيذ، جزء منه معمول به في القطاع العام والجزء الآخر يعمل به في بعض المؤسسات الخاصة، ثم حاولنا تطبيق الصيغة التنفيذية الجديدة على الدائرة المالية في المجلس.

لقد اطلع السيد على الطريقة المزمع تنفيذها وراقب تفاصيلها ونقاط القوة والضعف فيها، فوافق عليها مشجعاً لافتاً النظر إلى أهمية التقيد بالتنفيذ الحرفي والدقيق بهذه الصيغة الجديدة. بعدها حاولت شرح الموضوع إلى موظفي المحاسبة ولفت نظرهم إلى أهمية التدقيق في المستندات والصيغ القانونية المطلوبة... فتوهم الموظفون بادىء الأمر وحسبوها صعبة ومعقدة ولا يمكن فهمها بسهولة ثم راحوا يتهربون من التنفيذ والبقاء على الصيغة القديمة... وبعد مراجعات واتصالات... قبل بعض الموظفين بمحاولة الفهم والتطبيق... وهكذا صار بعد جهد.

كان الإمام السيد موسى الصدر يهتم بالعلوم الاقتصادية ويعطيها الأهمية اللازمة وكانت قراءته سريعة تفوق سرعة المعدل الوسطي في القراءة وتتجاوزها. أذكر بأنه سألني مرة لماذا تأخذون إجازات طويلة لقراءة كتب بسيطة... بالنسبة لي الكتاب الذي أحمله لا يستغرق مني أكثر من جهد أربع ساعات... وأنتم كم يستغرق من الوقت قراءة مثل هذا الكتاب... قال هذا وبجانبي السيد عبد الحليم خضرا، أجبته بأن هذا الكتاب يستغرق قراءته عندي بضعة أيام...

كما أذكر أنه في إحدى ليالي حزيران من عام ١٩٧١ أقام (السيد) مجموعة محاضرات في المجلس في الحازمية كان إحداها حول «فائض القيمة عند ماركس» وكنت ممن حضروا هذه المحاضرة وتابعوها لمدة ساعتين علماً

بأن أكثر الحضور لم يتمكن من استيعاب الدقة العلمية للمحاضرة والشرح الموضوعي، بالإضافة إلى الصعوبات التقنية الاقتصادية تمكن السيد من شروحات متعمقة... قبل أن ينتقل في محاضرة أخرى إلى نقدها على الصعيدين الإسلامي والواقعي.

كان يهتم بالعلوم العصرية وخاصة العلوم الاقتصادية والسياسية والفكرية العامة. وكان يقرأ كثيراً رغم المشاغل السياسية التي كانت تأخذ القسم الأكبر من وقته.

أذكر عندما ذهب إلى القاهرة عام ١٩٧٠ لحضور مؤتمر العلماء المسلمين أنه لعب دوراً إسلامياً بارزاً في المؤتمر وأشاد به علماء الأزهر وعلماء الدين المسلمين من كافة الأقطار الإسلامية. ومن يراجع سجل المؤتمر والأبحاث والدراسات الإسلامية والأدوار الرئيسية التي أداها مجموعة من العلماء المسلمين من المذاهب الإسلامية كافة يلاحظ الأسماء التي حلقت في أجواء المؤتمر.

هناك حادثة نشير إليها من باب الاطلاع: وهي أن السيد عندما انتهى المؤتمر الإسلامي في القاهرة تأخر عدة أيام لمقابلة الرئيس عبد الناصر... عندها تدخل السيد محمد حسنين هيكل لحل الإشكال وفعلاً تمت المقابلة وعاد إلى لبنان، لقد علمنا فيما بعد بأن شخصية إسلامية في لبنان زارت القاهرة في هذه الفترة بالذات لمدة أربع وعشرين ساعة ثم عادت سريعاً إلى لبنان.

أذكر حادثة قد تكون فيها بعض الدلالة حول العلاقات العامة والصلات والاتصالات مع مختلف الطوائف اللبنانية بالإضافة إلى الشخصيات والمغتربين اللبنانيين في لبنان والخارج. هذه الحادثة هي انتخاب معالي الأستاذ أنور الخليل لرئاسة الجامعة اللبنانية الثقافية في العالم، وفيها برز كاتب مثقف يعرف المشاكل اللبنانية وخاصة الاقتصادية والمالية وارتباطها

بالواقع السياسي في لبنان.

بعد فترة من انتخاب معالي الأستاذ أنور الخليل اتصل بي السيد قائلاً: «تفضل لعندي» ذهبت إلى مكتبه وأنا أحمل في رأسي همومنا المالية... وإذ بالسيد يفاجئني قائلاً: هذه مجموعة أسماء شخصيات أرجو دعوتها لحضور حفلة تقام أول المساء في المجلس في الحازمية. كانت الأسماء قليلة في عددها وفي المساء حضر الأستاذ أنور الخليل وأعضاء لجنة الجامعة اللبنانية الثقافية في العالم وحضر الأستاذ سعيد عقل والرئيس السابق لجامعة اللبنانيين الثقافية، ومغترب معروف من النبطية هو السيد مالك الصباح... لم يكن موجوداً بين الحضور أحد من أعضاء المجلس أو الإدارة فيه سواي حيث كلفت بالموضوع شخصياً. لقد تحدث معالي الأستاذ أنور الخليل وسعيد عقل وقد أسهب هذا الأخير في أهمية إيجاد تمثال لقدموس في مدينة صور. وركز بالتفصيل على قدموس وشقيقته أوروبا والعالم الفينيقي الذي هو في رأيه عالم الحضارة للإنسان الغربي والشرقي على الكرة الأرضية. وقد انتهى بالنتيجة إلى ضرورة القيام بنصب تمثال قدموس وشكر المغتربين القائمين بهذا العمل...!

ثم قام السيد وألقى كلمة شكر فيها جامعة اللبنانيين الثقافية في العالم، وشكر المغتربين للاهتمام بهذا الموضوع (أي إقامة تمثال قدموس) ودعا العائلة اللبنانية الواحدة إلى الاهتمام والتركيز على المحبة والتسامح والعدالة والإنصاف بين جميع اللبنانيين.

الفصل الأول

محطات
على طريق الذكريات

محطات على طريق الذكريات

في كانون الأول ١٩٧٠ اتصل بي السيد قائلاً: «تفضل لعندي». وهناك علمت بأن سفير بلجيكا في لبنان يريد زيارة المجلس، لم أكن أعلم طابع الزيارة من قبل، وجاء السفير وبعد الحديث وتبادل المجالات الدبلوماسية بدأ السفير يتكلم بموضوع الزيارة التي من أجلها جاء إلى المجلس.

الموضوع ينحصر في واقع إنشاء مستشفى للمجلس على أسس وطرق حديثة... ذكر السفير البلجيكي بأن هناك مؤسسات عامة متخصصة في بلجيكا يمكنها أن تساهم في بناء المستشفى وتقديم التجهيزات الحديثة، ولكن المشكلة تنحصر في أن ذلك يتطلب ضمانات من الدولة اللبنانية أو ضمانات من البنك المركزي اللبناني. وقد وجدت من خلال ترجمة النص الفرنسي الذي يحمله السفير التشديد على ضمانات رسمية.

لقد حاول السيد عرض الفكرة بالعربية قائلاً: نحن نريد إنشاء مستشفى خاص ولا شأن للدولة في تقديم الضمانات. ثم ذكر بأن هناك أراض وأوقافاً مهمة يمكن أن تدخل في حساب الضمانات وذكر له بأن هناك قطعة أرض مهمة يمكن أن تضاف إلى باقي الممتلكات التي يمكن أن تساهم في تقديم ضمانات للمؤسسات البلجيكية، ولكن السفير بقي مصراً على

طلباته الصعبة التنفيذ في لبنان... إذ لا يمكن للدولة أن تقدم كفالة ولا للبنك المركزي أن يعطي ضمانات في سبيل إنشاء مستشفى خاص.

أنتقل إلى وقائع جلسة حضرتها مع سفير التمسا كان يتكلم الفرنسية بطلاقة وبلهجة قريبة من لهجة سكان ضفاف السين...

كان ذلك في أوائل عام ١٩٧١ حين التقى السيد السفير النمساوي، لقد بدأ الحديث عن واقع لبنان والمنطقة، كما أن السفير النمساوي سأل السيد عن واقع الفلسطينيين في لبنان، لقد أجاب السيد بأن هناك فلسطينيين معتدلين... وهم الذين يقودون المقاومة في ذلك الحين، كما أن هناك فلسطينيون يساريون بنظر الغالبية في لبنان والعالم العربي، ثم انتقل السيد إلى الحديث عن أشياء فكرية عامة وفلسفية... تعتبر التناسق والترتيب وتوجيه النظام الكوني هو من الإبداع الذي يذكر الإنسان بعظمة الخالق... والبشر في أكثرهم ساهون عن الحكمة الإلهية... دار نقاش موسع حول هذا الموضوع ودخلت جمل وكلمات من صميم الفلسفة تختلف عن الجمل والكلمات العادية.

في أوائل عام ١٩٧٠ دخل القاعة وفد من أبناء القرى الحدودية بقيادة يساري معروف يريدون زيادة أسعار التبغ ويحتجون على معاملة صغار مزارعي التبغ. وافقهم السيد وذكر لهم بأنه سوف يتصل برئيس مجلس إدارة التبغ والتنباك بالإضافة إلى وزارة المالية وبعض المسؤولين، ولكن رئيس الوفد اعتبر أن هذه الطريقة غير كافية وطالب باتخاذ إجراءات غير متعارف عليها في واقع النظام اللبناني فما كان من السيد إلا أن أجابه بالحرف الواحد: «إن كنتم تبغون تحقيق مطالب ثورية فليس هذا باستطاعتي أنا طاقة معنوية مستعد أن أوظفها في خدمة الجميع للحصول على المطالب المحقة». صادف ذلك وجودي في القاعة لعرض بعض الشؤون المالية.

كما أذكر في العام نفسه بأنه بعد اجتماع اللجنة المالية حتى ساعة متأخرة من الليل وصل وفد يضم مجموعة كبيرة من الشباب ويطالب السيد بتأسيس حزب مثل بقية الأحزاب. كانت الساعة تشير إلى ما بعد منتصف الليل وكان السيد مرهقاً ومتعباً بعد نهار حافل... فما كان منه إلا أن أجابهم: «هذا المطلب هو مطلب مستقبلي ولا يمكن أن يكون مطلباً آنياً لأن القضية تحتاج إلى جهد كبير وبالتوفيق إن شاء الله».

هناك حادثة طريفة بعد إحدى اجتماعات اللجنة المالية وفي حوالي الساعة الحادية عشرة والنصف كنا في ساحة المجلس، الأنوار مطفأة والحرارة مرتفعة (صيف بيروت) وإذا برجل تجاوز الستين من عمره يحمل على كتفه معطفاً سميكاً وبيده الثانية محفظة قديمة... فوجيء الجميع بهذا المشهد وهذا الرجل الذي اقترب من بعض الحاضرين في ساحة المجلس قائلاً: «أنا فلان من قرية حداثا... عدت إلى وطني فوجدت أرضي مسروقة وأملاكي التي جئت من أجلها ضائعة.....».

قال هذا في وسط صمت الحضور وعندما سألوه من أرسلك في منتصف الليل إلى هنا أجاب: أريد منكم إعادة أرضي كما هي وكما تركتها قبل سفري إلى أميركا اللاتينية فما كان من أحد الحضور إلا أن وعده خيراً.

كانت لجنة الأوقاف في المجلس برئاسة الدكتور توفيق مرتضى مفوض الحكومة في مجلس الشؤون وكان إنساناً رفيعاً لا يصدر عنه إلا جميل الكلام ولطافة وبشاشة تضفي على الجالسين معه جواً من الحبور والنعومة.

كانت عملية إحصاء الأوقاف مشكلة لأنها بحد ذاتها عملية صعبة بالإضافة إلى أن صلاحيات المجلس ليست محددة بالتفصيل بالنسبة إلى الإشراف والمراقبة الدائمة على الأوقاف وعلى أولياء الوقف الذين يديرون الأوقاف بإشراف المحاكم الشرعية الجعفرية، لقد حاول المجلس تعديل

النصوص القانونية لهذا الموضوع فلم يفلح نظراً للأوضاع السياسية ومعارضة بعض كبار المسؤولين، هذه النقطة وغيرها مما سوف نذكره بالنسبة إلى محاولة إحصاء الأوقاف، كلفت لجنة الأوقاف مجموعة من الموظفين بإشراف رئيس دائرة الأوقاف، ولقد عارض هذا التدبير أحد أعضاء اللجنة محتجاً بأن هذه الأمور تتطلب الخبرة. وفجأة نظر إليّ السيد بابتسامة معبرة وأخيراً انتهى النقاش حول من يقود عمليات الإحصاء الأولية للأوقاف.

أذكر في إحدى جلسات لجنة الأوقاف كان نصاب الجلسة لم يكتمل بعد، فدارت أحاديث عامة بحضور السيد، هناك نقطة طرحها السيد وهي ضرورة إشراك الشباب أو بالأحرى توسيع اشتراك الشباب في الهيئة العامة، وذكر على سبيل المثال موظفي الفئة الثالثة وحملة الماجستير والدبلوم الجامعية، لأن توسيع قاعدة الاشتراك، في رأي السيد، تخلق نوعاً من التفاهم والاحتكاك مع العناصر الجديدة.

فما كان من صاحبنا إلا أن انتفض وصاح في الحاضرين قائلاً: هذا غير ممكن لأن ذلك سوف يجلب عناصر متطرفة إلى المجلس ويجعلنا تحت رحمة التطرف الذي يتميز به شباب الطائفة ومثقفيها في هذه الأيام.

في إحدى مناسبات الأعياد علم بأن الرئيس فرنجية وأركان الدولة يريدون تهنئة السيد، بدأت الاستعدادات والتهيئة لاستقبال الرئيس، في هذه الأثناء طلب مني السيد الإشراف على لجنة الاستقبال ولجنة التنظيم وأكثرها من الموظفين مع مساعدة عناصر من خارج ملاك المجلس وهم من أصحاب الخبرة في هذا المجال، لقد سهرت في ليلة يوم الاستقبال حتى بعد منتصف الليل، وكان السيد يراقب جميع الخطوات في العمل ولا يغيب عنه شيء حتى أصبحت الساعة منتصف الليل... وأحس السيد بأن «همتي» بدأت تتراخى... وخاصة بأن هناك يوماً من العمل ينتظرنا وفي قاعة المجلس الفسيحة

ناداني السيد قائلاً: «تستطيع الذهاب إلى البيت وأنا سأبقى في القاعة إلى ساعة متأخرة من الليل» ثم تمتم بكلمات خفيفة وسريعة مع ابتسامة لم استطع فهمها... وكل ما استطيع أن أذكره وهذا من باب الترجيح: «بأن ضياع الفرصة على الإنسان الذي يتشبث بها يورث اللوعة والغصة في القلب». لأن السيد كان سريعاً في كلامه.

في اليوم التالي وصلت المجلس عند الساعة السابعة صباحاً وهذه أول مرة، أصل إلى المجلس في وقت مبكر...

على كل حال هناك تصميم للقاعة الكبرى في المجلس والصفوف وأسماء كبار المسؤولين حسب الترتيب المعتمد في وزارة الخارجية بالنسبة إلى كبار المسؤولين والسفراء ورجال الدين وباقي المدعوين.

في أثناء حضور رئيس الجمهورية سليمان فرنجية ورئيس الوزراء صائب سلام وكبار المسؤولين حصلت بعض الفوضى وقد حاولنا جميعاً إيقاف الفوضى التي حصلت وكادت تفسد الاستقبال. ولكن رهطاً وعدداً مهماً من الشباب بدأ يتدافع باتجاه رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء مما كاد يسبب الفوضى من جديد.

بعد مرور أسبوع على هذا الحدث دعا السيد الموظفين الذين شاركوا في ترتيب الاستقبال ووجه اللوم إليهم بسبب الثغرات التي حصلت والتجمعات مقابل الرئيس فرنجية.. فقد كان في رأي السيد أن هذه التجمعات ضايقت الضيوف كثيراً وعندما ذكرت بأن الأخطاء كانت محدودة بالنسبة إلى السنين السابقة، ويجب قياس الأمور نسبياً، ضحك السيد وقال: «أنت تدافع عن نفسك على كل فالنسبية التي تتمسك بها واردة وعسى أن يكون التنظيم أفضل في المرات القادمة».

أذكر حادثة طريفة حصلت في صيف ٧٢، وكان السيد قد افتتح

الجامع الملاصق لبناء المجلس، لقد كان أكثرنا تردداً إلى الجامع في موعد صلاة الظهر... يكون الحشد كبيراً والتجمع أكبر عندما يعلم الجمع بأن السيد سوف يصلي هناك، في ظهر أحد الأيام وفي ختام الصلاة أحب السيد أن يشرح للمصلين (صلاة الميت) وذكر الأسباب الواجبة لتعلمها، كان السيد يراقب الحضور بلمحة سريعة وخاطفة دون أن يشعر أحد، كان يراقب حركات وإشارات وتعابير وقسمات الوجه، لقد لاحت منه التفاتة فوجدني أتكلم مع زميلي فقال لي بالحرف الواحد «يا أستاذ عدنان نعلمكم صلاة الميت ربما كانت الحاجة إليها ضرورية... أتذكر وفداً لبنانياً توجه الى موسكو وهناك توفي أحد أعضاء الوفد... فما كان من الدكتور أمين الحافظ وكان نائباً إلا أن صلى على المرحوم صلاة الميت». قال هذا مبتسماً... وتابع خطبته في المصلين حيث كنا نلاحظ عمق الإيحاء بين الكلمات والجمل. كان محلقاً في أجواء الكلمات الرقيقة والتي تحمل معنى يداعب العقل والإيمان بأسلوب يعتبر مدخلاً سمحاً وسبيلاً سالكاً لا يحول بين العامة والخاصة في فهمه...

نتابع سرد «بعض الحوادث» والأخبار المتفرقة كما وردت في حينه دون الأخذ بتسلسل تاريخي أذكرها كما رأتها عيناي خلال الفترة التي عملت بها في المجلس.

ويذكر العارفون بشؤون المنطقة بأن الرئيس شمعون عندما كان رئيساً للجمهورية، فكر في محاولة استعمال القوة ضد العشائر التي ترث السلاح أباً عن جد كجزء من التقاليد التي تفخر باستعمالها لكن قائد الجيش، في ذلك الحين، نصح برفع المستوى الحياتي لهذه العشائر عن طريق تنمية المناطق المتخلفة ووصل الأمر إلى هذا الحد.

لقد لاحظت خلال وجود شيوخ العشائر اللهجة الودية المتبادلة بين السيد وبين ممثلي العشائر المعروفين جيداً على صعيد البقاع وعلى صعيد المطلعين على الشؤون الاجتماعية والسياسية في لبنان. لقد هنأ ضيوف المجلس

السيد بوصوله بالسلامة، وبالمناسبة أعلنوا الولاء والاحترام والتقدير للسيد... وكان يلاحظ من خلال الكلمات المتبادلة الود المتبادل والتعهد بمواصلة الطريق لخدمة المناطق المحرومة والتي تعاني من الظروف الاقتصادية والاجتماعية والزراعية والصحية الصعبة...

كان الأب لوبريه أعطى إحصاءات... حول الواقع المظلم الذي يعيشه البقاع والجنوب وليس المجال هنا لذكر بعض الوقائع عن التخلف الصحي والتربوي والزراعي لهذه المناطق.

أعود لأقول أنه عند انتهاء الزيارة ودعهم السيد فرداً فرداً إلى خارج القاعة وقبل المشايخ المعروفين لديه وهو في الحقيقة يعرفهم جيداً ولا ينسى اسم أحد منهم.

نتابع سرد بعض الحوادث والأخبار المتفرقة:

في أحد الأيام في صيف عام ١٩٧٣ كنت ماراً في الشارع الرئيسي في مدينة النبطية وإذا بي ألمح سيارة السيد... فاتجهت نحو السيارة وحييت السيد ومرافقه ثم صعدت إلى السيارة التي اتجهت بنا إلى منزل رئيس البلدية في النبطية، هناك في منزل رئيس البلدية قال لي السيد: «بأن مهمة صعبة تنتظرك وتوفقنا فيك في وسط البلدة... لعله خير...» المهمة في إيصال رسالة مغلقة من السيد إلى شيخ عقل الطائفة الدرزية في بعدران وعلى كل كانت صدفة وليس أكثر، بعد الظهر ذهبت مع بعض الأصدقاء إلى الشوف ومنه إلى بعدران مقر شيخ العقل، وصلنا إلى بعدران عند حلول الظلام واتجهنا نحو منزل شيخ العقل فقيل لنا بأنه ذهب إلى بيروت، هنا أصبنا بنوع من الصدمة ماذا يمكننا أن نفعل في هذا الليل؟ كيف يمكننا العودة إلى النبطية في ساعة متأخرة خاصة أن الطرقات بعد ساعة معينة من الليل تبدو مقفرة وحركة السير قليلة جداً فيها.

طلبت مقابلة أحد أبناء شيخ العقل وذكرت له القصة (الرسالة)... أجابني: «هلق، منذ ربع ساعة توجه سماحة الشيخ نحو بيروت... ثم تابع أنا مستعد أن أؤمن الرسالة إلى بيروت مع أحد الأشخاص»، عندها سلمته الرسالة فأخذها مني قائلاً: «هي محفوظة ومؤكد وصولها في هذا الليل...» فشكرته كثيراً على ايجاد مخرج لهذه القضية بعدها عدنا أدراجنا فمررنا بدير القمر ثم الدامور ومن هناك اتصلت بالسيد هاتفياً وشرحت له ما حصل... فأجابني: «ماشي الحال».

لنا حكاية مع المستر شيبورين وهو مستشار في سفارة الاتحاد السوفياتي. عام ١٩٧٤ كنت رئيس مكتب الأمانة العامة بالوكالة في المجلس في ذلك الحين أصبحت أمام واقع جديد ومهمات جديدة تختلف عما سبق من شؤون مالية وأوقاف وشؤون إدارية، أصبحت في مواجهة مع الواقع في الشؤون اللبنانية... ولطالما حاولت جاهداً الابتعاد عن الجو السياسي اللبناني... هذا الجو الذي يعكس حقائق مرة وصعبة ويخلق مشاكل وآلام ناتجة عن الطريقة العوجاء في فهم الفكر السياسي والعلاقات السياسية وطريقة التعامل بين البشر فيه، هذا الوطن لبنان نحزن عليه كلما استعرضنا بلداً شرقياً أو بلداً غربياً وطريقة الحياة السياسية المتطورة.

نعود إلى قصة الأستاذ شيبورين، حضر المستر شيبورين إلى مكتبي برفقة بعض الموظفين قال لي بلغة عربية صافية ونبرة قوية: لدي دعوة من المفتي بابا خانوف إلى السيد لزيارة الاتحاد السوفياتي، وزيارة الأماكن الإسلامية والدينية وجميع الأماكن الإسلامية في الاتحاد السوفياتي... كان المستر شيبورين دقيقاً ومهتماً بالموضوع. في اليوم التالي سلمت الدعوة إلى سكرتير السيد الذي سلمها بدوره إلى السيد فقرأها ووافق على تلبية الدعوة. ولكن المشكلة ان السيد نسي، وهو في خضم المشاكل الكثيرة التي يواجهها فكان

بحاجة إلى تذكير وكذلك نسيت السكرتاريا في المجلس تذكير السيد حتى قبل سفر الوفد بيومين أو ثلاثة (كان يجب تقديم أسماء أعضاء الوفد وعددهم لاتخاذ الترتيبات اللازمة لسفرهم إلى الاتحاد السوفياتي في ذلك الحين).

حتى أنا نسيت التذكير وهو ضروري جداً في مثل هذه الحالات، وهكذا عتب علي المستر شيبورين كثيراً لهذا النسيان غير المقصود، هذه حكاية تعود إلى عام ١٩٧٤ كان الجو في ذلك الحين جواً ملبداً عانى قسم من اللبنانيين بداية حرب حقيقية... لقد أصبحت التعقيدات اللبنانية الداخلية تتداخل مع مشاكل ومتاهات وتعقيدات الوجود الفلسطيني في الجنوب وفي بيروت وفي مناطق أخرى في لبنان.

لقد كنت ماراً في القاعة المقابلة لمكتب السيد حين شاهدت الأستاذ يوسف سالم وهو رجل معروف منذ عهد الاستقلال، كان رئيساً لجمعية تجار بيروت وانتخب نائباً عدة مرات بالإضافة إلى علاقاته الواسعة برجال الحكم وخاصة العهد القائم في عام ١٩٧٥، عندما رأيته حييته وسألته عن واقع الأحوال (خاصة وأنه من المقربين من العهد ومن المطلعين على خفايا الأمور...) لقد كنا نعيش حالة من التشاؤم والذهول نتيجة الصدمات المتواصلة التي حصلت في ربيع عام ١٩٧٥ فالناس غير مهيأة لهذه الحرب إن كان من الناحية الاقتصادية أو الاجتماعية والصحية والنفسية.

نعود إلى الأستاذ يوسف سالم كان جاد القسمات حاد النظرات تبدو عليه مسحة من التشاؤم من الأوضاع سألته قال لي: «شوف يا أستاذ اللبنانيون منقسمون على أنفسهم، هناك لبنانيون مرتبطون بالخارج ومرتبطون بالمشاكل «والنضال» لبلدان كثيرة وخصوصاً البلدان العربية المسلمة بالإضافة إلى صلات قسم مهم منهم مع جهات غير لبنانية موجودة في لبنان... وهذا غير

مشروع ولا يمكن لأي لبناني كما يقول أن يعترف بالصلات غير المشروعة له لبعض اللبنانيين مع الخارج والذي يشعر بأن لبنان وطن البعض ووطن أسمي للبعض الآخر...» عندها أجبته: أن لبنان هو فاتحة البداية وخاتمة النهاية، هو وطن الجميع ولا يمكن أن يقبل العلم والمنطق أن يكون لبنان مقسماً نفسياً، ثم تابعت ألا ترى معي بأن الظروف الاقتصادية والاجتماعية، وخصوصاً الفقر والمرض والجهل والحرمان يمكن أن تساهم لفئة من اللبنانيين في الضياع والانحياز عن جادة العقل... علماً بأنه ليس هناك من تبرير لأي مواطن بأن يستسلم لأي دولة سوى وطنه لبنان».

هناك حكاية صغيرة أود ذكرها، في القاعة الكبيرة وجدت المطران بولس خوري جالساً في صدر القاعة بانتظار وصول السيد، المطران بولس الخوري عضو في هيئة نصرة الجنوب، له مقدرة قوية في الكلام المنطقي والكلام الشعبي. يتكلم بقضايا الإنسان بقوة وفهم واستيعاب لمشاكل الانسان في هذه الدنيا وخصوصاً في لبنان... كما أنه ذو مقدرة في نثره الكلام (الشعبي) والنوادر والأقاصيص والحكايات ثم يمثل بعض المشاهد بحركات مستمدة من واقع الكلام. تقدمت من سيادة المطران[1] وحييته سألني عن السيد فقلت له: علمي بأنه ترك المجلس وبعد التعارف قال لي: أنتم الشباب يهمكم المزاح أكثر من الجد... قال هذا وابتسم ثم أخذ يروي لي حكايات ونوادر وأمثال شعبية مصرية حديثة وقديمة... فتجده عليماً بالعقلية العربية كطريقة تفكير في الحياة والمفاهيم وخصوصاً العقلية المصرية بالإضافة إلى العقلية اللبنانية طبعاً... إن طريقة الفهم للعقلية العربية والعقلية اللبنانية تجدها مبثوثة في كلامه وفي نوادره المصرية والأمثال الشعبية المرحة... التي تجلب

---

(١) مطران الروم الأرثوذكس في مرجعيون.

الراحة وتخفف شيئاً من آلامنا ومشاكلنا... (أذكر أنه أشاد كثيراً بالموسيقى والشفافية والرقة التي كان يتمتع بها كذلك كان المطران يتذوق الموسيقى وخاصة الموسيقى العربية هذا ما ذكرني برجال الثقافة في أوروبا، والذين تأخذ الموسيقى جزءاً مهماً من ثقافتهم).

أذكر في بعض المرات التي شاهدتها وسمعتها بأن السيد يحب النوادر والمزاح الرفيع وكان يحاول في أوقات الاستراحة أن يضفي جواً ناعماً ورقيقاً حول زواره ومريديه... أذكر مرة أنني اتصلت بالسنترال على الرقم (٣٢) ويبدو أن يدي أخذتها كبسة دون أخذ العلم على الرقم (٣١)، خلال لحظة قصيرة سمعت صوت السيد يقول لي: نعم أستاذ عدنان...؟ لم انتبه بالسرعة اللازمة للخطأ وإذ به يتابع: بسيطة أنت طالب رقم السنترال... ثم ضحك قائلاً أهلاً وسهلاً...

في إحدى جولاته التفتيشية مر على مكتبي في الطابق الأول وسألني عن الأحوال وظروف العمل ثم ترك الغرفة... وفجأة دق جرس الهاتف في الغرفة المجاورة فما كان من السيد إلا أن دخل غرفة ثانية وأمسك بالتليفون قائلاً: نعم أهلاً وسهلاً، فما كان من الموظف الذي يتكلم على الخط الآخر إلا أن فوجيء بالصوت وارتبك وخجل من نفسه... فضحك السيد لهذه المفاجأة التي أصابت الموظف وقال لي: يبدو أن الجماعة مستعجلين كثير لشرب الشاي في أول هذا الصباح الخيّر... (في جلسات اللجان أي اللجنة المالية ولجنة الأوقاف، كان السيد يدعوني لحضورها كممثل للإدارة)، كان السيد يستمتع بالأخبار والنوادر الحلوة ويضحك كثيراً لها ويجيب بعفوية وسرعة بديهة على جميع ما يلزم من النوادر والأخبار الضاحكة.

ننتقل الآن إلى موضوع آخر، إلى تحويل مجرى الليطاني لري المناطق الجنوبية وزيادة الطاقة الكهربائية وتعمير مناطق جديدة زراعية وصناعية...

ظهر الحديث عن مشروع الليطاني رسمياً في عام ١٩٤٩... وبقي يعاني من فترة لأخرى من مشاكل سياسية وطائفية حتى عام ١٩٧٥ بداية الحرب اللبنانية.

هناك أفكار اقتصادية علمية ترتكز على زيادة الانتاج المعد للتصدير للخارج المعتمد في الدول المتطورة وبعض البلدان النامية... هناك أيضاً التغييرات المتمثلة في دور إنتاج القطاعات المنشأة حديثاً.

ولعل زيادة نسبة الدخل في المناطق الجنوبية بالإضافة إلى الدخل العائد للدولة، وأهمية الاستثمارات العائدة لتطوير قطاع الصادرات... جميع هذه الأفكار واردة في مشروع الليطاني.

وكان الإمام يهتم اهتماماً خاصاً بهذا المشروع، ففي محاضرة في الجامعة الأميركية ذكر فيها أن جميع الجهود والدراسات واللجان الفنية والهندسية موضوعة على الرف لأسباب تتعلق بالواقع اللبناني والعقلية اللبنانية... التي لا تهتم كثيراً بتطوير وتوسيع الأراضي الزراعية والوقائع الاقتصادية العلمية.

لقد استقر الرأي الرسمي في عام ١٩٧٤، بعد فترة طويلة من التأرجح والتعديلات المتلاحقة إلى الموافقة، على تنفيذ المرحلة الأولى من مشروع ري لبنان الجنوبي والتي تشمل الأراضي الصالحة للري الواقعة بين مستوى ٥٠٠ - ٨٠٠ م فوق سطح البحر وذلك باعتماد منسوب ٨٠٠ م في حدود الإمكانات الفنية الموجودة.

لقد فسرت مصلحة الليطاني بأن المقصود من المرحلة الأولى حسب البرنامج الذي تقدم به مجلس إدارة المصلحة هو تنفيذ القناة الرئيسية من بحيرة القرعون إلى الحدود الجنوبية تقريباً لغاية صيف ١٩٨٣ ثم قدمت المصلحة الوطنية لنهر الليطاني بالاشتراك مع خبراء (الفاو) دراسة أولية لهذه

المرحلة ومقارنة بين القناتين (٨٠٠) عالي مركباً و(٨٠٠) أسفل مركباً وقد قرر مجلس إدارة المصلحة اعتماد القناة (٨٠٠) عالي مركباً وكلفت مديرية المصلحة بوضع الملفات اللازمة، وما زال خبراء (الفاو) يعملون على وضع المخطط التوجيهي العام لري (٣٣٠٠٠) هكتار ضمن حدود المرسوم ١٤٥٢٢/ المتعلق بتوزيع المياه (تقرير اللجنة المشتركة ١٩٧٤/٦/٢٠) (هذا من الناحية النظرية لبحثه).

لقد ذكر أحد الوزراء الاختصاصيين بأنه على الرغم من مئات الملايين التي أنفقت حتى نهاية ١٩٦٨ والتي بلغت حوالي ٣٠٩ ملايين ل. ل. فإن الاعتمادات المخصصة للري كانت تقدر بحوالي ٥٪.

الواقع والأماني

كان السيد في نظرته السياسية والاجتماعية واقعياً وكانت له طموحات فكرية وهناك من يعتقد بأن تفكيره يهتم بثلاثة أبعاد مهمة: هي الزاوية الإسلامية، الزاوية اللبنانية، ثم الزاوية العربية، وهي أبعاد ثلاثة يضاف إليها الفروع والتفاصيل.

كان يهتم ببناء علاقات طيبة مع الطوائف اللبنانية كافة ومنها الطوائف المسيحية وكان على علاقة جيدة مع رؤساء الأديان الموارنة والكاثوليك والأرثوذكس والطوائف المسماة بالأقليات. لقد كان الأب عبدالله داغر رئيس الجامعة اليسوعية في عام ١٩٧٠ على صلة دائمة مع السيد، وقد دعا السيد لزيارة الجامعة اليسوعية وإلقاء محاضرة فيها، فلبى الدعوة... قدم رئيس الجامعة اليسوعية المحاضرة بكلمات موجزة ولبقة.

كان من زواره شخصيات مسيحية عديدة سياسية وفكرية وثقافية.. وهو على صلة بموظفين كبار مسيحيين يزورونه ويسمعون كلماته ويحاورهم... وكان بعضاً منهم يقدم له الإحصاءات والمعلومات والتقارير المهمة التي كان يحتفظ بها في مكتبه.

كان السيد يهتم بالاطلاع على آخر المستجدات والأوضاع المالية والإدارية والإنمائية والاقتصادية اللبنانية، لأنه كان يزود نفسه بالمعلومات التي يكتبها ويلقيها شفوياً بمعلومات وأرقام حديثة عن واقع وشؤون البيت اللبناني.

عرفت أحد الخبراء الذين عاشوا قسماً مهماً من حياتهم في باريس... حيث تلقى العلم وحصل على رتبة علمية عالية، وكما لاحظت كان لا يتقن أسلوب مخاطبة أرباب السياسة والتكتيك اللبناني المعروف، الذي يحلو للبعض بأن يسميه العبقرية اللبنانية الفريدة إلى آخر الألفاظ الجميلة في الإخراج والشكل... لقد كتب الأستاذ جورج نقاش في صحيفة الأوريان عندما كان سفيراً للبنان في باريس في عهد الجنرال ديغول... مقالاً بعنوان «العبقرية اللبنانية» على مدى يومين متتاليين متسائلاً عن حقيقة العبقرية اللبنانية التي يحلو للبعض التفنن بها... وتساءل عما إذا كان الزيف والخداع والكذب والرياء والشطارة بالقفز فوق الحبال المنصوبة تسمى عبقرية... ثم طرح مفهوم العبقرية في الدول المتطورة وواقعها المأساوي في لبنان.

أذكر بأن هناك عدداً من أصحاب المصالح المسيحيين يلجأون إلى السيد في الملمات للمساعدة المعنوية في شؤون وشجون كثيرة. وهناك شخصيات مسيحية دينية وفكرية وسياسية واقتصادية كانت على صلة دائمة مع السيد بالإضافة إلى صلات فكرية حول شؤون الثقافة المعاصرة والإنسان المعاصر بالإضافة إلى شؤون التنمية الاجتماعية بصورة عامة في لبنان معتمداً الأسلوب والفكرة العلمية عن قضايا التنمية.

كانت للسيد صلات يومية وأسبوعية مع المطارنة المسيحيين الموارنة والكاثوليك والأرثوذكس والإنجليين من خلال هيئة نصرة الجنوب التي تضم ممثلين لهذه الطوائف برئاسته وكانت الاجتماعات والأبحاث مستمرة والصلات دائمة في سبيل البحث في المستجدات مع تقديم بعض الخدمات والهبات لجميع الفئات في الجنوب.

لقد زار الفاتيكان قبل عام ١٩٧٠ فاستقبله كبار المسؤولين في الحاضرة

وتناقشوا معه حول مواضيع التقارب بين المسلمين والمسيحيين وقد ذكر أحد الآباء الكاثوليك، الذي كان في الفاتيكان في أثناء الزيارة، بأن الانطباع هو انطباع مشجع... وأن السيد يملك طاقات فكرية وثقافية معاصرة أثارت الانتباه ثم ذكر لي بأنه يتردد على المجلس لزيارة السيد وهو يسمع منه التشديد على مبدأ الحوار والمناقشة والتقارب في سبيل خدمة الحضارات الإنسانية في العالم.

كان دائماً يردد بأن الطائفية هي انتماء سياسي واجتماعي لا علاقة لها بالدين، الدين يرتبط بأفكار وكتب سماوية مقدسة تحض على الخير والتسامح والمحبة ومساعدة الضعفاء وأن جوهر الدين هو فعل الخير ومبادىء إنسانية سامية لا تقوم على شكل أو مظهر معين.

هناك العديد من الشخصيات المسيحية، والمثقفين ورجال التربية ورجال الفكر، نذكر منهم الأستاذ ميشال الأسمر رئيس الندوة اللبنانية الذي كان على صلة فكرية واجتماعية قوية مع السيد. ونذكر على سبيل المثال رئيس الجامعة اليسوعية في عام ١٩٧٠ وغيرهم من رجالات العلم والأدب والفكر. أذكر بأني قد شاهدت مرة المتروبوليت إيليا الصليبي وكان طاعناً في السن يساعده اثنان في المشي... وقد قطع المسافة بين باحة المجلس والمكتب بصعوبة.

وكان رجال الدين المسيحيون في الأعياد والمناسبات من مطارنة وكهنة يترددون إلى المجلس في أوائل السبعينات للسلام على السيد بمناسبة الأعياد. وكنت أشاهد في عام ١٩٧٠ سفراء عديدين من أبناء الطوائف المسيحية يترددون عليه ومنهم سفير في دولة مهمة في أميركا اللاتينية وقد دعي مراراً إلى مدارس مسيحية كبرى ومؤسسات تربوية ليلقي محاضرات تربوية وثقافية واجتماعية وعلمية وإنسانية وذلك خلال النصف الأول من السبعينات، وقد

حدث أن هناك ديراً خاصاً في أقاصي الجبل يدعى (دير حراش) وكان لي به تلامذة أقارب هربوا من الجنوب فكانت دراستهم في هذا الدير البعيد الذي يصعب الوصول إليه... إلا لمن تمرس في الطرقات والغابات والتعرجات الصعبة. كان ذلك في عام ١٩٧٢ عندما طلبت رئيسة المعهد تحقيق طلب عزيز... وهو حضور السيد إلى المنطقة وإلقاء محاضرة... ولا بد من الإشارة إلى بعض الوقائع التالية:

ـ لقد دعي إلى باريس عام ١٩٧٤ إلى منطقة اليونسكو التابعة لهيئة الأمم المتحدة لالقاء محاضرات مع المطران جورج خضر والأستاذ كمال جنبلاط.

ـ وقام برحلات عديدة إلى المهجر وإلى البلدان الأفريقية وكان خلال إقامته يساهم في تطوير بعض المفاهيم بالمحاضرات التوجيهية والمناقشات وكان هناك عدد مهم من مختلف الطوائف اللبنانية يتبعون المحاضرات.

ـ كانت هناك زيارات متبادلة وتشاور في المناسبات في أوقات الاجتماعات مع مفتي الجمهورية كما أنَّ هناك زيارات وتشاورات مع شيخ عقل الطائفة الدرزية، لا بد من الإشارة إليها. عندما اشتد القصف في إقليم العرقوب عامي ١٩٧٠ ـ ١٩٧٢ ذهب وصلى في كفرشوبا بالرغم من المخاطر الشديدة في ذلك الحين.

زار بعض القرى في العرقوب وحث الأهالي على الصمود ولاحق قضاياهم الحياتية والمعيشية وكانت صلته دائمة بالشيخ أحمد الزين ممثل مناطق حاصبيا ومرجعيون في هيئة نصرة الجنوب كذلك الشيخ مرسل نصر.

أما بالنسبة إلى السياسيين في المنطقة الغربية فكان على صلة جيدة مع الأكثرية. أذكر حادثة بأن الرئيس تقي الدين الصلح زار المجلس قبل أن يقدم استقالته بعد الخضات العنيفة التي حصلت في البلاد، دخل القاعة الرئيسية في

المجلس وكان هناك جمع غفير من الشباب... وبدأت تنهال عليه الأسئلة عن موقفه من قضايا جنوبية... وكان السيد يستمع إلى النقاش الدائر بين أطراف عديدة فما كان من الرئيس الصلح إلا أن غادر القاعة بسرعة وهو في حالة «عدم الارتياح».

وفي عام ١٩٧٤ جرت اتصالات بين السيد والرئيس كرامي والأستاذ كمال جنبلاط وقد زارا المجلس عدة مرات للبحث في قضية الإصلاح السياسي والاقتصادي في لبنان. وقد قدم الأستاذ جنبلاط دراسات حول بعض التعديلات الدستورية بالإضافة إلى تحديث النظام اللبناني. وكنت أشاهد الرئيس كرامي والأستاذ جنبلاط يدخلان معاً إلى المجلس للتباحث في هذه المواضيع الحساسة والتي هي محور لبنان في عام ١٩٧٤.

ولعل الظروف الأمنية في الجنوب وفي بيروت وهبوب الرياح، العاصفة في ربيع عام ١٩٧٥ طغت على جميع المشاريع الإصلاحية.

ننتقل إلى مناسبات أتذكرها بأن رحلة السيد إلى المملكة العربية السعودية كان في عدادها الشيخ أحمد الزين وكان الشيخ القاضي يتردد في معظم الأحيان إلى المجلس كما ذكرنا من قبل.

مر في المناسبات التي تستدعي مشاورات عاجلة على صعيد الوطن والمناطق، وأذكر بأنه في عام ١٩٧٠ زرت مقر الطائفة الدرزية في فردان راغباً في مباحثة المسؤول المالي لدراسة بعض الأعمال والترتيبات المالية والأساليب المتبعة في الجباية والإنفاق... ذهبت إلى المؤسسة فلم أجد المسؤول المالي ولكن شيخ العقل عندما علم بالموضوع استقبلني وأعطاني فكرة عن المطلوب وكان حديثه ودياً ومرحاً في أثناء المقابلة.

وللسيد صلات واسعة مع المغتربين إذ أن أكثر الدعم المالي من دنيا

الاغتراب في نيجيريا وشاطىء العاج والسنغال وغيرها من البلاد الأفريقية بالإضافة إلى الكويت وبعض بلدان الخليج.

وكان هناك مشروع المستشفى الذي لم يبصر النور بالرغم من الدراسات التي أجريت له نظراً لعدم توفر المال اللازم والاضطرابات الخطيرة التي حلت بالبلاد.

بالنسبة إلى المشايخ والعلماء الشيعة منهم من كان يؤيده ويتحمس له ومنهم من كان يخاصمه ويتطرف في الخصومة وكان بعضهم يرتبط بسياسيين معروفين بخصومتهم الشديدة للسيد، وكان بعضهم ينتقدون السيد في المجالات العامة. والذي أذكره بأن الشيخ حسين الخطيب كان يتردد إلى المجلس في عام ١٩٧٥... ذكر لي بأن الماضي مضى وقد يتردد في بعض الأحيان يومياً.

هناك فريق من العلماء يقولون بأنهم يختلفون مع السيد في الرأي نذكر منهم المشايخ العلامة الشيخ محمد جواد مغنية، العلامة الشيخ عبدالله نعمة، والعلامة الشيخ عبد الحسين نعمة. في صيف عام ١٩٧٥ التقيت صدفة سماحة الشيخ محمد جواد مغنية وهو عالم له مؤلفات كثيرة في الفقه والتفسير والشروحات والتاريخ الشيعي السياسي. التقيته صدفة في جباع وكان يكتب كتاباً جديداً، وفي المساء سألني: يا أستاذ أليس لديك راديو صغير لسماع الأخبار؟ فقلت له: كلا... ثم عاد وسألني: أليس لديك سيارة فأجبته ضاحكاً: كلا ثم عاد وسألني: هل أنت متزوج؟ فأجبته: كلا فأجابني بلهجة سريعة: وماذا تفعل في هذه الدنيا يا أستاذ...؟ لقد كانت سهرة مفيدة تحدث سماحة الشيخ عن مصايف الجبل والشمال وربيع شتورة وركز على جمال الطبيعة الرائع في شهر نيسان ووصف الطبيعة بجمالها ومياهها العذبة وطبيعتها الساحرة وهو متأثر بهذا الجمال الذي له خير معين للراحة والكتابة ثم

انتقل للحديث إلى واقع الحال... وتكلم عن أشياء داخلية على صعيد الحكم والطائفية دون أن يعبر برأيه عن أي شيء آخر. وقد شكى عدة مرات صحته وواقعه الصحي.

أما سماحة الشيخ سليمان اليحفوفي الذي شغل مركز نائب رئيس المجلس طيلة الأعوام ١٩٦٩ ـ ١٩٧٥ فكان على صلة وثيقة بالمجلس وبرئيسه كنت أشاهده في مكتب السيد في بعض الأحيان وكان السيد يمارس صلاحياته ومهامه في عام ١٩٧٠ وسماحة الشيخ في مكتب السيد يجلس بجانبه.

كان سماحة الشيخ اليحفوفي يمثل السيد في المناسبات وطيلة فترة غيابه واستقبال المسؤولين ومنهم رئيس الجمهورية في ذلك الحين بمناسبة الأعياد.

ثم علمنا فيما بعد بأن الشيخ قل تردده إلى المجلس إلا في أوقات قليلة.

بعض العارفين حاول أن يربط هذه النقطة بوقائع وتفسيرات عدة وكأنها تحاول أن تفك لغزاً محيراً، وفي عام ١٩٧٤ كان للشيخ مكتب في القاعة المجاورة وكان يجلس في القاعة زميل يقوم بأعماله اليومية، وقد ذكر لي الزميل المذكور بأن الشيخ مازحه بابتسامة قائلاً: «لا أعلم من الذي يراقب الآخر في القاعة الكبيرة، ولا نعرف من وضعوا لنا هذه الحياة الجديدة». على كلٍ بقي واقع الحال معلقاً دون الوصول إلى نتيجة حول هذا الموضوع: ولابد من كلمة عن سماحة الشيخ عبد الأمير قبلان وفضيلة الشيخ محمود فرحات.

أذكر بأن سماحة الشيخ عبد الأمير قبلان كان يتردد في خريف عام ١٩٦٩ إلى المجلس وكان في بعض الأحيان يمزح ويعلق ويبتسم، تعليقاته الاجتماعية مبطنة بالانتقاد والدعابة وكان لا يحب الضرر، خطبه في المجلس تنم عن اطلاع واسع وأسلوبه بسيط بعيد عن التعقيد وكان مخلصاً لرئيس

المجلس. لقد اختاره السيد لوظيفة المفتي الجمفري الممتاز، أما فضيلة الشيخ محمود فرحات فكان إنساناً لطيفاً مرناً في تعامله مع الناس بالإضافة إلى أنه خبير في الشؤون المحلية. وكان إنساناً واقعياً يحب الحياة ينشد السلام والمحبة وحاضر النكتة والبديهة.

لقد جاءت الأديان لتسمو بنا إلى الأعالي فهبطنا بها إلى المنخفضات. إن التاريخ سوف يذكر بأن اللبنانيين كانوا يعيشون في حالة نفسية جيدة نسبياً، والطائفية أدت دوراً مهماً في التركيبة اللبنانية وفي تركيبة النظام السياسي والاقتصادي والاجتماعي حيث وجهت بطرق متنوعة ضد الشباب والمثقفين الأحرار المستقلين والاختصاصيين والتشكيلات التقنية القادمة من أرفع الجامعات العالمية في الشرق والغرب، كل ذلك معروف ولا يحتاج لشهادة تأييد أو طعن.

نعلم جيداً الأرضية التي كان يتوكأ عليها لبنان ما قبل الحرب، وهي الفقر والتفاوت الطبقي والخلافات السياسية العميقة بالإضافة إلى الخلافات الاقتصادية والفوضى والظلم والنمو غير المتوازن بين المناطق ومشاكل الجنوب ذات الجذور العميقة الذي ذاق مرارة الأيام من الأعداء ومن بعض الأصدقاء أيضاً... والناس تهجر الزرع والتبغ لتهرب من حياة صعبة... «لتدب» نفسها في حياة الفقر والإرهاق الجسدي والنفسي في المصانع الموجودة في الضاحية الجنوبية، كانوا يقبلون بالأجور المنخفضة التي لا تكفي شخصاً أو شخصين فكيف بعائلات مؤلفة من سبعة أفراد أو عشرة أو أكثر؟!.

إن التاريخ سوف يروي بوضوح وصراحة من دفع لبنان إلى حرب أهلية مدمرة وصاعقة على الصعيد اللبناني.

ننتقل إلى الحديث عن بعض القضايا نبدأ ببيت الطائفة هذا القصر الذي كان يدعى قصر القدسي، كان وظل لفترة متروكاً ومهجوراً لا يسكنه

أحد وزعمت بعض الدعايات والأخبار المنتشرة بأن القصر «مسكون» تسكنه الأشباح والعفاريت وأصبح بعض الناس يخاف دخوله أو السير بجانبه ليلاً.

كان السيد يسمع هذا ويبتسم ويضحك عندما يسمع هذه الإشاعات الكثيرة التي تحيط هذا المبنى ويعلق عليها تارة بأننا مهتمون بترويض الأشباح... ولنجرب حظنا مع هذا القصر المناسب.

لقد تم شراء القصر في النصف الثاني من عام ١٩٦٩ وكما هو معلوم تم إصلاح وترميم القصر وتهيئته وفرش جميع غرفه وكان السيد يشرف ويعطي الرأي والتوجيهات للمهندسين العاملين... وكان للقصر ورثة عارضوا البيع علماً بأن جميع الترتيبات القانونية أجريت على معاملات البيع والشراء التي تمت بصورة قانونية، هناك دعوى تطالب ببيع المبنى وملف الدعوى كان موجوداً ومحفوظاً عند الأستاذ محسن سليم الذي أرسل كتاباً إلى رئيس المجلس يعتذر فيه عن إمكانية الاستمرار بالدعوى «لأسباب صحية» وقد استدعاني السيد فور علمه بالرسالة وقدم لي الرسالة للحفظ. ويبدو أن السيد كان عالماً بالموضوع فسلم السيد الدعوى إلى الأستاذ المحامي فؤاد رزق بصفته أستاذاً وحجة في القانون وبعد يومين حضر الأستاذ رزق إلى المجلس واجتمع بالسيد وبحث معه الموضوع، ثم استدعاني السيد وقال لي: «عليك الاتصال مع الأستاذ رزق بالموضوع».

لقد ذهبت إلى مكتبه عدة مرات وتذكرته عندما كان أستاذاً نبيلاً مع أبنائه الطلاب كان إنساناً ودوداً لا يفكر في إيذاء أحد.

خلاصة القول نجحت الدعوى وثبتت عملية البيع وانتهت القضية على خير.

لا بد من ذكر بعض ما نذكره عن انتخابات الرئاسة في ٢٩ آذار ١٩٧٥، وما نتج عنها، ولا بد من الوقوف على انتخابات رئاسة المجلس من

فوز بالإجماع للسيد من أصوات الهيئة العامة. لقد بدأت الترتيبات والتهيئة الإدارية قبل الانتخابات بعدة شهور.

اعتماداً على القانون الأساسي لتنظيم المجلس والنظام الداخلي اتخذت الهيئة التنفيذية والهيئة الشرعية قراراً بتمديد ولاية الرئيس إلى الخامسة والستين. وقبل التصويت بثلاثة أيام شاهدنا قوى مسلحة رمزية من بعلبك والهرمل وبعض المناطق وهم من المسلحين الأشداء وضعوا أنفسهم في تصرف السيد للحراسة والدفاع، وقد لاحظت بأن هؤلاء المقاتلين يحرسون ولا ينامون من الليل إلا ساعة أو بعض ساعة لا يعرفون الهدوء في حركاتهم المستمرة طيلة أربع وعشرين ساعة ويراقبون كل شيء مع كل قادم.

كنت في يوم الانتخاب مسؤول اللجنة القانونية لتدقيق مستندات الناخبين ولمراقبة وجود أي نوع من الأخطاء وكان التدقيق صعباً في أول الأمر اعتدت عليه ونفذته بصورة أصلية ومجردة. وفي أثناء عملية الاقتراع حصل إطلاق نار دون معرفة السبب والدافع وسرعان ما عاد الهدوء وتابعت الهيئة العامة الاقتراع، حتى أول المساء أعلنت النتيجة لجنة مختصة، فدوىّ الرصاص بكثافة، ثم انسحب السيد لوقت قصير إلى منزله وعاد بعد قليل و«هجم» عليه جمهور كبير من المؤيدين من كافة الطبقات الاجتماعية للتهنئة، والتقبيل وكان صبوراً طويل البال تحمل المشاق العديدة وهو يبتسم ولم ينس أحداً وفي اليوم التالي زاره رئيس الجمهورية وبعض أركان الدولة مهنئين.

إن انتخابات أعضاء المجلس وأعضاء الهيئة الشرعية تمت في أيار **١٩٧٥**، وكانت قد تمت في جو هادىء وأتى الفائزون من لوائح متنوعة. من الأعضاء القدامى الذين فازوا نذكر الأستاذ زيد الزين وهو مشهود له بالنزاهة، والدكتور عدنان حيدر وهو جراح وسياسي في الوقت نفسه. أما الدكتور

أحمد دوري الأمين العام السابق لم يحالفه الحظ في الانتخابات وكان صادق اللهجة ذو طابع محافظ.

ومن الذين فازوا من اليسار الأستاذ سرحان سرحان والأستاذ محسن دلول والدكتور محمد دقيق.

أما القاضي الأستاذ محمد علي صادق والقاضي الأستاذ معين عسيران ففازا ٠ون أن يكونا محسوبين على أحد.

وفي يوم الانتخابات استدعى السيد الموظفين وطلب منهم عدم التدخل والتزام الحياد وشدد على ذلك بعدما علم أن أحد الموظفين يقوم بنشاط في عملية الانتخابات.

وقبل الانتخابات جاءني مهندس من صاحب مكتب هندسة يطلب إدخاله في لائحة الهيئة العامة للانتخابات، وكانت اللجنة المختصة قد حددت مهلة معينة معلن عنها في الصحف... وهي مدة نهائية لاعتراض أعضاء الهيئة العامة أصحاب حق الاقتراع في الموضوع، جاء المهندس وهو يطلب مني المستحيل لإدخاله في عداد الناخبين، شرحت له الأسباب القانونية والإدارية التي تمنعني من ذلك. وخلال بحث الموضوع مع المهندس وصلني تلفون من وزير وذكر لي على التلفون «أنه لا يقبل الأعذار لعدم إدخال المهندس في الهيئة العامة» فأجبته بشيء يقرب من اللهجة اللبنانية المتعارف عليها «بأني سأحاول ما يمكنني ترتيب الموضوع» ثم اتصل للمرة الثانية والثالثة لحل القضية.

ثم عاود الوزير الكرة وعدت وشرحت له القضية مفصلاً والاتصالات التي قمت بها دون نتيجة، ثم عاد وطالبني بإعادة الكرة والملاحقة والاهتمام بما يلزم للموضوع.

كانت طلبات الترشيح تقدم إلى مكتب الأمانة العامة وقد لوحظ تدفق الطلبات من المرشحين من مختلف الاتجاهات من اليمين والوسط واليسار وكان هناك مرشحون ينتمون إلى جهات تختلف والمجلس.

الطلبات المقبولة تسجل مع استقبال المرشحين والتحدث معهم عن جميع الأسئلة والإيضاحات المطلوبة.

كان المشرف على الانتخابات وعمليات الفرز من اختصاص قاض كبير مشهود له بالنزاهة والإخلاص، كنت في ذلك الحين ألاحظ الأعمال، والصناديق والناخبين فرأيت اندفاعاً مهماً من أعضاء الهيئة العامة لإنجاح مرشحيهم، وكان المرشحون يتحركون بقوة للتصرف بكل شيء ومراقبة الأوضاع العامة وسير التصويت وعملية الانتخابات التي تمت في جو مريح وهادىء وقد فازت الهيئة الشرعية من أعضاء قدامى وأعضاء جدد وفي طليعتهم سماحة الشيخ محمد مهدي شمس الدين الذي انتخب نائباً لرئيس المجلس ومن ثم رئيساً للمجلس الإسلامي الشيعي الأعلى في لبنان.

ـ سأل الإمام مرة المدير العام في المجلس الشيخ محمود فرحات مازحاً عن أول يوم صيام في شهر رمضان المبارك فأجابه الشيخ قائلاً: بدأت الصيام قبل نهار الخميس بيوم أجابه الإمام ضاحكاً «إذن أنت مقلد للمفتي...».

ـ أحد الزملاء ذكر أن لي دراسة عن الجباية في حضور الإمام أجابه الإمام بعفوية مازحاً «ما في أشطر من الأستاذ عدنان بكتابة التقارير» وهو يقصد الدراسات مسبقاً...

ـ قبل صدور النظام المالي كنت أتردد في توقيع المستندات نظراً لأني كنت جديداً في العمل... قال لي على التلفون «أنت تهرب من السندات ونحن نتحمل المسؤولية...».

ـ في مجلة لبنانية باللغة الفرنسية كان هناك عدة مقالات عن البهائية والموضوع هو عبارة عن دعاية فوق العادة للبهائية، لفتت نظر الإمام هذه المعلومات المكتوبة فكلفني بمراجعة الأعداد وتقديم خلاصة عنها، وبعد قراءة

الخلاصة نظر الإمام إلي وقال: «أنت تقرأ المعلومات وتلخصها نخاف عليك من بعض التأثيرات...».

ـ كان الإمام يردد: «من يقبل التجني والتعدي؟» وخصوصاً في عامي ١٩٧٤ ـ ١٩٧٥، وكان في بعض الأحيان لا يعرف المهادنة فكان يرددها في عام ١٩٧٤ عندما حاول بعض المسؤولين تجاوز الحدود وكانوا يقفون حجر عثرة أمام مشاريعه وتجميد مشاريع القوانين في مجلس النواب وهي قضايا معروفة كان يردد أمام أعضاء المجلس: «لو بقيت وحيداً سوف أحارب الظلم والتعدي والطغيان...».

الفصل الثاني

الإمام ... أوقات العمل

الإمام ... أوقات العمل

كان الإمام يعمل بشكل دائم تقريباً... بعد المحاضرات الدينية والعلمية بالاضافة الى الإشراف على شؤون المجلس والاستقبالات السياسية والاجتماعية واجتماعات اللجان (اللجنة المالية ولجنة الأوقاف ولجنة المستشفى ولجنة التنمية... إلخ).

كانت المعالجات العشائرية تأخذ وقتاً في بعض الأحيان وهناك معالجات عديدة بين العشائر احتفل بتاريخها في المجلس. وكان رؤساء العشائر في بعلبك والهرمل وفي أنحاء كثيرة من البقاع يسمعون ويهتمون ويحترمون الإمام.

أذكر في إحدى المناسبات حضرت حوالي الساعة السادسة والنصف إلى المجلس واعتقدت لأول وهلة بأن الإمام نام جزءاً من ليله... ولكنه ذكر أنه لم ينم حتى الصباح وأنه ساهر منذ أن غادرت المجلس في منتصف الليل، كان يعمل وكأنه عشرة رجال في كافة المجالات دون كلل أو ملل، كان لديه رغبة قوية وعطش غير متناه نحو العمل ونشاط هام ومتنوع يهتم بالقضايا الكبيرة والصغيرة.

حاضر الذاكرة لا تفوته الجزئيات في المناسبات، أذكر مرة بأنه أراد السفر... وفي المطار كان يودع من قبل الشخصيات الرسمية والأصدقاء باحتفال مهيب، في هذه اللحظات وقبل صعوده إلى الطائرة سمعته يقول لي

بصوت منخفض: «عليك الذهاب إلى قرية (...) في البقاع الغربي وكشف أعمال الوقف لديها وتحضير تقرير بذلك».

أذكر مرة قبل سفره إلى لندن بساعة اتصل بي وسألني عن المستندات المالية الموقعة في الأسبوع الماضي... سألني: هل ما زلت تذكر هذا؟... وقد تذكرتهما بصعوبة...

إن الذاكرة القوية التي كان يتمتع بها سماحة الإمام كانت تساعده في محاضراته الدينية والعلمية وفي نقاشه مع كبار المسؤولين عن الجنوب والبقاع والمناطق المحرومة، وقد لاحظت بأن الإمام يملك تحديدات قانونية دقيقة للعديد من المسائل العلمية الإدارية.

كان يستوعب المواضيع الدينية والعلمية بسرعة وكان يميز بسهولة بين الأفكار من جهة والتحديدات القانونية والمالية والإدارية، وكان يعجب بالطروحات القانونية والإدارية السليمة في جلسات اللجان الذين هم من الاختصاصيين البارزين.

كان في جلسات اللجان ناعماً ورقيقاً وكان يختار الكلمات التي تتميز بالرقة والود والشفافية، كان مناقشاً هادئاً يطرح الأسئلة، وكان شديد الاهتمام بالكلمات الدبلوماسية التي لا تؤذي أحد.

أذكر في إحدى جلسات اللجان اتخذ أحد الأعضاء موقفاً متشدداً بالنسبة إلى أحد الموظفين... فانتقد الإمام هذا الموقف «غير الناعم...».

حضر لمقابلة الإمام الدكتور العطار وهو من كبار موظفي هيئة الأمم المتحدة للشؤون الاقتصادية والسكانية، وصادف وجود بعض الموظفين لنقل بعض المحاضرات المطبوعة وعند حضور الدكتور العطار استقبله الإمام بحفاوة ثم قام ونقل بعض المحاضرات المطبوعة... خجل الموظفون من أنفسهم وتابعوا المهمة بعناية وسرعة...

حضر الأستاذ حسن فرحات في أواخر عام ١٩٦٩ وهو مدير عام في مجلس الخدمة وجلس فترة ينتظر... ثم غادر مقر المجلس، وعند حضور الإمام سألني فقلت له: «لقد حضر وتحدثنا وإياه» ضحك وقال: «لقد تحدثنا!».

في السنة الأولى لتأسيس المجلس كان كل موظف يحضر نهاراً بعد الظهر في كل أسبوع، وفي المساء الساعة العاشرة سألت الإمام عما إذا كان يريد البقاء في المجلس، أجابني بلباقته المعهودة: «إذا لم يكن لديكم ارتباطات أو مشاريع ممكن أن تتحملوننا ساعة أو ساعتين» قال هذا ضاحكاً...

كان الإمام يعقد مؤتمراً صحافياً عام ١٩٧٣ بحضور نقيب الصحافة الأستاذ رياض طه، وصودف إلى جانبه أحد المشايخ المسنين... يبدو أن الشيخ تأثر لواقع الجنوب، فاندفع بعرض مزايا الجنوب، لقد ترك الإمام الشيخ لكي يطفىء غيظه حتى انتهى من كلامه، تقدم نحوه وقال له بلهجة ناعمة وابتسامة خفيفة...: «عندما ينتهي مؤتمرنا مولانا يبدأ مؤتمركم».

كان يطرب للكلمة الرقيقة والمعبرة، كان اجتماعياً مرحاً كان لديه مجموعات كبيرة من النوادر والأخبار الفكاهية، وكان رئيساً للمجالس الرفيعة ذات الطابع المهذب في الكلام والنقاش.

كان يتمتع بقدرة قوية في تكييف جو الجلسات والاجتماعات إلى الغاية التي يريدها، وكانت لغته في الحديث سهلة في الظاهر ولكنها بليغة لا تحول بين العامة والخاصة في فهمها.

كان يجذب الناس والطلاب والمثقفين والمغتربين بلغة تعبر عن نفسها بالسلاسة مع روعة الأداء وعمق الإيحاء تكشف عن خفايا النفس الإنسانية والمشاكل الاجتماعية التي يعانيها الجنوب وجميع الفئات المحرومة من الطوائف اللبنانية.

كانت لغته تعبر عن صدق العاطفة وواقع المعاناة الحية التي يعانيها

الشعب... هذه اللغة النابضة بالحياة تتفجر كلاماً وخطباً ومحاضرات دينية وإنمائية واقتصادية، حيث ترى صدق العاطفة بجانب العقل...

عندما شاهدت حفلة مصالحة بين بعض العشائر في مناطق بعلبك والهرمل وكانت برعاية الإمام، فرحت كثيراً بالاحتفال الذي تم من خلال هذه المصالحة. كانت تقاليد العشائر في الرقص في حديقة المجلس، وهناك شيوخ العشائر الذين قبلوا تحكيم الإمام وكان الإمام يحكم بالعدل فرحاً وممازحاً الأطراف كافة، ثم وقف يتقبل التهاني مع شيوخ وأبناء العشائر سائلاً المولى أن يبعد الحرب والدمار ويبعث المحبة والمودة والإخاء والسلام.

وقد شرح أهمية التسامح والإنسانية بين البشر وعودة السلام بين العائلات الواحدة والتي هي من أصل واحد وعشيرة واحدة مشدداً على أن الإسلام دين المحبة والسلام والأخوة المشتركة بين أبناء الديانة الواحدة وبين مختلف الأديان.

لقد زار في عام ١٩٧٠ مفتي الديار السورية سماحة الشيخ أحمد كفتارو المجلس وقد جرى له استقبال في القاعة الكبرى في الطابق الأول وقد كنت حاضراً هذه المناسبة. وقد أستقبل الإمام ضيفه بحفاوة وعندما جلس الضيف بدأ يتكلم عن لبنان وسوريا البلد الواحد والأخوة بين المسلمين والمذاهب المتعددة والإسلام واحد في كافة الأقطار العربية والاسلامية.

ثم قام الإمام وارتجل كلمة عن فلسفة الإسلام الواحد مهما تعددت المذاهب وأن الدين ليس بشكل أو بمظهر ولكنه مبادىء إيجابية سامية يعلمنا الخير والحق والعدالة والإنسانية، وأن جوهر الأديان واحد والمبادىء الإنسانية واحدة والشرائع، مهما تعددت واختلفت مبادئها، تنادي بمبدأ حماية الإنسان وتعزيز أخلاقه والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وأن الإسلام، مهما تعددت المذاهب، فهو دين الحق والمحبة والسلام بين الأفراد، والسلام بين الأمم، دين لكل عصر ولكل زمان وعندما نجسد في ذواتنا مبادىء الدين الحنيف نكون

قد خطونا خطوات إلى الأمام نحو الكمال المنشود.

في المناسبات والحفلات كان يسأل عن أنواع الضيافة وما هو المناسب لتلك المناسبة، فكان يعطي التعليمات لأنواع الضيافة التي تناسب بعد الظهر أو في المساء، وكان يحرص على أن تكون تناسب الضيوف وكان شديد الحرص على أن تكون حفلات الاستقبال والعشاء في المجلس ناجحة، ولا يهتم لتعب أو لإرهاق.

وفي حفلة جمعت المحامين ذكر الإمام بأن الطائفية مكرسة في الدستور وفي القوانين النافذة وليس لنا يد فيها وعندما يأتي يوم ونتساءل عن رأينا بالنظام الطائفي نقول: نريد إلغاء الطائفية السياسية ومساواة اللبنانيين أمام القانون دون التأثر بطائفة أو مذهب.

الامتيازات في عصرنا مرفوضة والتمييز بين فئة وأخرى عمل لا تقبله الأديان والشرائع الإنسانية، وأن الدساتير الحديثة لا تقبل ولا تقر التمييز والعنصرية والتسلط. إن الحرمان والفقر والمرض غير مقبول في شارع، ومعترف به في شارع آخر. لقد وجدنا في نظام طائفي ولا يمكن أن نكون نحن السبب ولسنا أصحاب المسؤولية عن النظام الطائفي في لبنان.

لقد ذهبت إلى باريس في عام ١٩٧١ وكتبت رسالة إلى الإمام ذكرت فيها بأن النظام اللبناني يحتاج إلى تصحيح، لأن هناك طبقة صاحبة الامتيازات غير مستعدة لكي تساعد أو تساهم في مشاريع اجتماعية صحية أو تربوية لخدمة الفقراء من أبناء الطبقة المحرومة.

هناك البطالة، ونقص العمالة، والحرف الرئيسية بحاجة للتطوير ولتركيز التنمية الرئيسية على ضوء حاجات وإمكانات المناطق، وخلق يد عاملة محلية مرتبطة بالأرض، وهذه المهمة تبدو من سلم الأولويات للتنمية الزراعية والصناعية، وكذلك تطوير سوق العمل الذي تتركز فيه اليد العاملة غير المتخصصة.

لوحظ ارتفاع العاملين في الأعمال المكتبية حيث بلغت النسبة حوالي النصف تقريباً، كما تشير بعض التقديرات حيث تركزت الهجرة على صعيد القدرات الإنتاجية والاختصاصيين.

حضرت إلى لبنان وفي أول مناسبة ضحك الإمام وقال لي بالحرف الواحد: «يؤخذ عليك بأنك مثالي» لقد قرأت كلاماً جميلاً ولكنه غير واقعي.

في عام ١٩٧٤ أذكر أن الإمام سألني على التليفون قائلاً ما بين الدعابة والجد: « لماذا يا أستاذ عدنان لا تحضر أيام الجمعة والآحاد؟ لماذا تعاملون المجلس وكأنه دائرة حكومية؟». فقلت: البارحة الجمعة كنت أراجع في مجلس الخدمة طيلة الدوام عن أسماء موظفين الفئة الأولى... أجاب ضاحكاً: «هذه صدفة ولا يمكننا قياس أمورنا في الحياة العامة على الصدفة... إنها صدفة وعلى كل حال نرحب بتكرار الصدف...».

في ربيع عام ١٩٧٥ كانت انتخابات المجلس وكان الإمام لديه برنامج عمل يومي وأسبوعي لإكمال جميع الترتيبات والإشراف على الترتيبات التنفيذية حسب الأصول المعتمدة، وقد صودف وجود بعض الشخصيات وذكروا أمام الإمام أنهم لم يحصلوا على نسخ مطبوعة بأسماء الهيئة العامة. اتصل بي الإمام عاتباً ومستنكراً أسباب هذا التأخير وقال: «أنت المسؤول الأول».

وفي اليوم التالي عندما تأكد الإمام عن واقع الحال سألني ضاحكاً: ماذا نسميك؟ أبو محمد؟!.

حضر الإمام لأول مرة إلى النبطية في أوائل الستينات، جاء ليلقي كلمة بمناسبة ذكرى أسبوع الأستاذ أنطون الصايغ، وذلك في النادي الحسيني بحضور مجموعات من المشايخ والحوارنة وأهل الفقيد وهذه حادثة لن يمر

التاريخ عليها مروراً عابراً. وفي هذه المناسبة تكلم الأستاذ فؤاد البستاني والأستاذ أدوار حنين والدكتور بطرس ديب وغيرهم.

قام الإمام وألقى كلمة تحدث فيها عن فلسفة الأديان والمعاني العميقة والأهداف... وخلص إلى القول بأن جوهر الأديان السماوية واحد تأمر بالخير والمحبة وإقامة ما هو حق... ثم شدد على أهمية التسامح والمحبة والأخلاق، وقد لاقت المحاضرة صدى طيباً بين الحضور، أسلوب المحاضرة سلاسة التعبير بالإضافة إلى وضوح الرؤيا وعمق الإيحاء بأسلوب يجمع بين القوة والبساطة وبين الروعة والجمال...

أكثر المحاضرات التي يلقيها الإمام غير مكتوبة وهناك تصميم موجز. صودف، وهو يذهب إلى إلقاء محاضرة لدى إحدى المؤسسات العلمية، في الطريق التفت الإمام إلى إحدى المقربين ضاحكاً وقال له: «ماذا تحب أن نقول في هذه المحاضرة؟» أجابه: عفواً يا مولانا ليس لي دور، ضحك الإمام وقال: بأن الأفكار تأتيه بسرعة وتتزاحم التحليلات في الذهن وتندفع نحو الموضوع...

في تموز عام ١٩٧٣ كنت في مكتب الإمام، لكي أعرض بعض المواضيع العائدة للأوقاف، هناك سمعته يحكي على التلفون مع نقيب الصحافة المرحوم الأستاذ رياض طه ويقول: «نطاحي وحدنا في هذه الدنيا، كل الأعمال مطلوبة من السيد في هذا المجلس وجميع الأمور مسؤول عنها السيد...».

كيف يمكن أن أتفرغ للقضايا العامة، وقضايا تعديل النظام الداخلي والأوقاف ومشاكل الجنوب والتهجير ومشاكل الضاحية ومشاكل البقاع والعديد من المناطق اللبنانية؟.

كان الإمام بادي التأثر ويزيد تأثره عندما يرى نفسه غارقاً في القضايا

الصغيرة التي لها جهاز يفترض أن يقوم بها.

في بعض الأحيان كان الإمام يدعو إلى اجتماعات دورية للموظفين كان الإمام يحدد مبدأ الخدمة والاختصاصات بملاك المجلس بالإضافة إلى الاهتمام بمشاكل الناس، وكان دائماً يحرص على المعاملة الحسنة، والمتصفة باللياقة والمحبةلأصحاب المصالح.

كان يقول: «نحن بحاجة للناس ونحن بحاجة إلى أن نعاملهم أفضل معاملة... ألا يكفي ما يتحمله المعذبون في هذا الوطن... من فقر وتشرد وحرمان؟ حتى نعاملهم بالمعاملة السيئة والتشبث بحرفية القانون والروتين وخلافه؟».

لدى انتسابي إلى المجلس قدمت عدة اقتراحات فيما خص الخطوط وأنواعها والألوان وتناسقها، وبقيت التصاميم المختلفة في الملف، وكان يطلع عليها الإمام في أوقات الفراغ وفي اجتماعات اللجنة المكلفة وكان يناقش أدق التفاصيل بالنسبة للألوان وكتابة الخطوط وربط علاقة جمالية بين الخطوط والألوان وفي النهاية اقتنع أعضاء اللجنة المكلفة بصوابية رأي الأرقام.

الإمام يحب الحدائق والزهور وكان في المجلس حديقة صغيرة. في بعض الأحيان، بالرغم من مشاغله، يعطي التعليمات وكيفية ترتيب الحديقة وتنسيق الزهور الجميلة والزهور الفواحة وكان يسأل عن أنواع الشتول والأشجار الصغيرة ذات الخضرة الدائمة. كان يفرح للجمال التي كانت تتمتع به هذه الحديقة الصغيرة وهو يحمد الله على نعمته التي خلقها سبحانه وتعالى.

كان الإمام يتمتع بقدرة تحمل غير عادية، كان يمارس العمل الديني والسياسي والاجتماعي والثقافي وإلقاء المحاضرات الدينية والعلمية والإنمائية والسياسية بالإضافة إلى الواجبات الاجتماعية في العاصمة والمناطق ومشاكل العشائر في البقاع والعلاقات الاجتماعية مع معظم الشخصيات اللبنانية. لم

يكتف الإمام بالعلاقات اللبنانية الحسنة بل مع المغتربين في أفريقيا وأحياناً في أوروبا وأميركا، والعلاقات الثقافية مع الشخصيات الفكرية والثقافية من كافة الطوائف والانتماءات السياسية والاجتماعية.

كانت علاقاته جيدة مع نخبة من رجال الدين المسلمين وكان العديد منهم يتردد إلى المجلس. وفي ذهابه إلى السعودية اصطحب مفتي السنة في صيدا وكان يحرص على أن تكون علاقاته جيدة مع جميع الطوائف الإسلامية في بيروت والمناطق.

عندما حصل إضراب لبنان عام ١٩٧٠ وقد نجح الإضراب نجاحاً تاماً كان الإمام مشرفاً على عمليات الاتصال بكافة الشخصيات والهيئات الوطنية في ذلك الحين.

يوم الإضراب ذهب الإمام وحاضر في الجامعة الأميركية وأعلن مطالب الجنوب وسرد حكاية الجنوب مع الدولة ابتداءاً بمشروع الليطاني وانتهاء بالحرمان والفقر والمرض الذي يعانيه أبناء الجنوب، ثم تابع الإمام قوله: «بأنه لن يتراجع». وبالرغم من أنه لم ينم في ليلة الاضراب فإن أعصابه مثل الحديد كما قال ولا تؤثر فيه جميع الوسائل.

أذكر في أواخر عام ١٩٦٩ أن امرأة فقيرة كانت تتردد إلى المجلس وتحمل بيدها مجموعة من الأوراق والسندات وتعود حزينة كئيبة. في أحد الأيام جاءت هذه السيدة إلى المجلس وقابلت الإمام وظهرت دموع الفرح والابتسامة على الوجه وكأن شيئاً قد تبدل وتغير...!

ذكر الإمام بأن هذه المرأة الجنوبية اليائسة كانت تملك مجموعة من الأراضي ولكن أحد النافذين حاول أن يسطو على جزء من أرضها، وعندما علم الإمام بالأمر كلف أحد المحامين بملاحقة الموضوع لأن قضية السيدة هي قضية حق.

إلى العقل اللبناني

(نداء في بداية الحرب)

إلى ذلك العقل النير الذي لا ينقطع عن القلب الودود. إلى الفكر الملتزم بالضمير، إلى ضمير لبنان الواعي، إلى الإبداع الذي أنعم الله به على الإنسان في لبنان، إلى الجذور التي أوقدها العليم الخبير في نفوس المثقفين والخبراء والمتفكرين والتي رعتها أيدي الرحمن، إلى التجارب والمجربين، إلى كل دماغ يرى متألماً غسق الليل الذي غشينا، وإلى كل قلب يحب لبنان أو الإنسان أو هما معاً، إليكم جميعاً.

أين أنتم يا سفراء الله في الوطن من أحداث لبنان الدامية ومن اللهب الذي يحرق الحرث والنسل ويكاد يصيب المنطقة بكاملها؟

أين أنتم؟ هل نسيتم مسؤولياتكم؟ هل تنكرتم لفطرتكم التي فطركم الله عليها؟ هل منعكم أحد من التفكير في الحل؟ هل منعتم من عرض أرائكم؟ هل عرضتم فرفض الوطن مقترحاتكم؟ هل تجاهلكم المسؤولون وأهملكم المواطنون فاعتبرتم التجاهل والإهمال عذراً للاعتزال؟.

تركتم الوطن العزيز الذي لا نملك غيره؟! هذا الوطن الفريد في نوعه هذه الأرض التي تعكس السماء، هذه الجغرافية التي تمثل التاريخ، هذه التربة الشفافة المبدعة كالروح، بل الروح نفسها، هذه البقعة التي امتدت إلى العالم كله فتبلور العالم فيها، هذا الإنسان الذي أراده خالقه كبيراً فأرادوه صغيراً

وأراده مقداماً فأرادوه حذراً متجنباً آلام قومه ومصائب بني نوعه وأراده قائداً طليعياً مضحياً فأرادوه راكضاً متجاهلاً أنانياً.

على من تركتم الوطن هذا والمواطن يا أيتها العقول المسؤولة، حتى أصبح يحارب في إنسانه وفي أرضه وفي رسالته وفي قوته وحتى في كرامته.

هل أترفتم بعقلكم ـ لا سمح الله ـ وتنازلتم لأولئك الذين حولوا وطن المبادرات الدائمة إلى العقيم خلال ثلاثين عاماً أو أكثر؟ هل هربتم من الرصاص والقناص وتركتم الوطن وحده في محنته غريباً يذوب كالشمعة ليلة الأليم؟!

هل أنزويتم في بروجكم المهددة أو بروج أوروبا العاجية تتفرجون حتى إذا سقط قريبكم في المحنة وحتى إذا تعرضت بيوتكم للبلاء تتحركون وتتصلون بقادة المقاتلين أو بأصدقائهم أو بمن كنتم تتجاهلون وجودهم وكنتم تترفعون عن التفكير فيهم؟

هل تشمتون؟ لا قدر الله بمن؟ أو تتوقعون النهاية لمن؟

هل سمعتم ما يقول الصديق عنكم قبل العدو؟ ألا يكفي الوطن عذاباً وهواناً؟ إن مقتل خمسة مسلحين من منطقة الباسك يهز قصر فرنكو وحكمه ونظامه لكن الآلام المريعة التي تحل بنا لا تهز أحداً، بل لا يبالي أحد بها وبنا وبمدننا وجامعاتنا اللهم إلا تجار السلاح أو العدو المتربص أو الشامت.

أين أنت أيها العقل اللبناني ذو الضمير ويا أيها الأخ في المصير ويا أيها الصديق العاقل؟

فكر، ادرس، تعمق، اقترح، اطلب... توسل، استنجد، انتقد، شدد، طالب ثانياً وثالثاً ورابعاً... انشر في أوساط المواطنين اقتراحاتك، في أوساط الطلاب الذين غابوا أيضا بدورهم عن الساحة، أشهد وأشهد العالم والتاريخ وقف مع الوطن في محنته.

إن الحلول المطروحة على الساحة مع الاحترام لطارحيها، عدا البعض منها، إما طائفية والطائفية بلاء الوطن، وإما فئوية وفي تنفيذها أو القبول بها انتصار مرفوض،وإما حلول نابعة من التشنج أو التحدي وهذه ترفض مرتين!.

والحلول العادلة المحقة بحاجة إلى الإخراج الصحيح أو إلى توحيد المواقف أو تدور بما يشبه حوار الطرشان يملأ حديثها الآفاق والأنفس، والآخرون يقولون أنهم لم يسمعوا مطالب محددة أو مقترحات مدروسة وتستمر المحاولات والهيئات والاجتماعات والاتصالات الخاصة والجانبية المليئة بالإيجابيات ثم الجمود... واستمرار المحنة.

يحدثونك عن الخوف والخوف المتبادل ويعملون لأجل خلق خوف أكثر عند الآخرين كأنهم يبدلون العلاج بتعميم المرض.

وبكلمة، تمر على الوطن أكبر محنة في تاريخه تفوق ضحاياها الحروب، لكن الغموض في الأسباب والنتائج والأبعاد والعناصر المتفاعلة فيها من الداخل والخارج يسيطر على الجو حتى أن الطبيب والأطباء يظهرون كأنهم يزيدون في المرض.

* * *

والآن أيها العقل اللبناني الملتزم بالضمير! أناشدك بل يناشدك الوطن راجياً أن لا يكون الوقت قد فات... أناشدك التحرك لكي تضع خطة لخروج الوطن من محنته.

فالمطلوب أن تصنع مستقبلاً لا ينتمي إلى ما انتهى إليه الماضي، مستقبلاً لا يضم الفئات، مستقبلاً يتساوى المواطنون فيه في الحقوق والواجبات، مستقبلاً يتمكن الوطن فيه من الوقوف في وجه التحديات العالمية وأمام الاعتداءات الإسرائيلية العسكرية منها والثقافية والاقتصادية والحضارية مستقبلاً، يحفظ وينمي رسالة الوطن العالمية ويجعل من الطوائف اللبنانية نوافذ

حضارية على العالم لا دويلات متصارعة ويمكن لكل فئة أن تعطي الوطن لا أن تأخذ منه وتنمو على حسابه، مستقبلاً تحس كل طائفة بأنها عزيزة تعطي ولا تشعر بأنها مظلومة ومصنفة ومحتقرة، مستقبلاً يكتفي كل مواطن من دون استثناء بالوطن معتبراً أنه خاسر لو خسر الوطن حتى لو قدم له العالم أجمع، مستقبلاً يكون الوطن ندوة الحوار الإسلامي ـ المسيحي وقاعدة اللقاء الأوروبي ـ العربي ومختبر التفاعل الحضاري بل يكون واحدة للتجربة العالمية الناجحة غداً.

المطلوب أن تصنع غداً يحمل الوطن فيه مشعل القضية الفلسطينية ورسالة القدس على رؤوس الأشهاد فيدخل به وبها ضمير العالم ويؤسس معه ومعها حضارة المستقبل العادلة.

المطلوب أيها العقل أن نبني وطناً جديداً لا يبقى فيه محروم وأن نجند الكفايات الضائعة والعبقريات المهملة لرفع شأن وطن العمالقة، وطناً يستثمر كل ثرواته المائية المهدورة ومناجمه المكتنزة أرضه وبحره وجوه، تماماً كمن يعمل آلاف مهاجرينا في أرجاء العالم.

المطلوب أيها العقل المحب أن تضع خطة عمل لتنفيذ الحلول حتى يكون لبنان هو المنتصر، لا المسلمون ولا المسيحيون، لا الأفراد ولا الأحزاب، لا اليمين ولا اليسار بل الشعب وحده.

والمطلوب أن تفكر أو تعلن عن تفكيرك في أننا كيف نقنع الناس، كيف نكسب قبول الأطراف؟ ماذا نقول للمتطرفين، للموتورين، للمتضررين، ولمن فقد عزيزه، ماذا نهيء للشهداء الذين سقطوا وللآلام الفاجعة التي ملأت القلوب؟ ماذا نقول للعالم لمن فقدنا ثقتهم؟ لمن خيبنا آمالهم، لمن رفضنا بوادرهم، لمن أسأنا إلى مصالحهم وإلى مواطنيهم.

المطلوب إذاً خطة تضم الفكر ووسيلة التنفيذ وأسلوب الإخراج. فإلى

العمل في الساحة أيها العقل أيها الضمير أيها الإنسان: ﴿والذين جاهدوا فينا لنهديهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين﴾.

من هو موسى الصدر؟
(سيادة المطران بولس الخوري)[1]

«قامة طويلة، طلعة بهية، عينان ساحرتان، شخصية جذابة، ثقافة عالية، لغات كثيرة، دائرة معارف، جمال جسدي تلاقى مع جمال روحي، واكتمال الجمالات بفضيلة التواضع، ولكن عظمة الإمام موسى الصدر ليست في كل هذه الشخصية بل عظمته في أنه وضع شخصيته العظيمة ومواهبه المتعددة وكل طاقاته في خدمة الشعب.

عرف الإمام أن التعصب الديني كان وما زال من أسباب تقهقر الشرق، فقاوم التعصب الديني وحطم الجدران التي أقامها البشر بين الأديان، وانفتح على جميع الطوائف، فكان يزور الجميع، ويأكل ويشرب عند الجميع.

وعرف الإمام أن رؤساء الطوائف يستطيعون أن يؤثروا على الشعب التابع لهم، لذلك ألف (هيئة نصرة الجنوب) من رؤساء الطوائف في الجنوب دون سواهم، وعرف أن الطائفة التي تريد أن تطالب بحقوقها يجب أولاً أن تعطي إلى أبنائها حقوقهم، لذلك أنشأ (المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى).

وعرف أن الجنوب هو باب لبنان الكبير ولكي يستطيع الجنوبيون أن يصمدوا في أرضهم، يجب أن يتوفر لهم العيش الكريم والصحة والعلم... إلخ لذلك أنشأ المؤسسات التربوية والمهنية والصحية... إلخ.

---

(١) مطران مرجعيون للروم الأرثوذكس.

وأخيراً عرف الإمام أن «إسرائيل لا تهتم إلا للغة البندقية والمدفع، لذلك أسس حركة أمل للدفاع عن الجنوب وعن كل لبنان».

لدي نص إعلان بتوقيع الإمام موسى الصدر يدعو فيه اللبنانيين للإضراب يوم الثلاثاء في ٢٦ أيار سنة ١٩٧٠ ـ جاء فيه: لقد أغلقت المدارس، وتمزقت أنابيب الماء، وقطعت أسلاك الكهرباء، وحصدت النار مزارع التبغ، وسنابل القمح التي كانت تنتظر الحصاد، لقد وقف الجنوبيون وحدهم في العراء...

ويحسن بي أن أذكر أن هيئة نصرة الجنوب التي كان لي شرف عضويتها، قد عقدت جلستها الأولى في دار المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى في الحازمية بتاريخ ١٣ أيار ١٩٧٠، وعقدت الجلسة الأخيرة في البطركية المارونية في بكركي بتاريخ أول أيلول ١٩٧٥.

ولا أنسى زيارتنا كهيئة نصرة الجنوب إلى كفرشوبا، حيث أقمنا صلاة الظهر في جامع البلدة الذي كان قد تعرض للضرب من قبل العدو، وزيارتنا لراشيا الفخار حيث دخلنا إلى كنيسة الروم الأرثوذكس وفيها ألقى الإمام موسى الصدر خطبة وطنية رائعة.

وأما علاقة الإمام بي شخصياً فأذكر منها ما يلي: إني أحتفظ بأثرين من الإمام رسالة بخط يده وتوقيعه، جاء فيها: «تحياتي الأخوية المشفوعة بالاحترام والأدعية لسيادتكم، وللباقة المباركة من زهور السماء ونجوم أهل الأرض المجتمعة في مجلس النصرة ومجمع القلوب النضرة، وبعد فإني خرجت قادماً من صور لكي أتشرف بالحضور للاجتماع وكنت متهيئاً نفساً وعقلاً وقلباً للمشاركة، ولكني أشعر الآن قبيل الظهر شيئاً من الانحطاط، وأن ألمي النفسي لعدم توفيقي للحضور يفوق عوارض الجسد، ولا يخففه إلا كرم سيادتك وعفو الزملاء الأعزاء، بعد ذلك فإني حاضر بحضوركم وملزم

بقراراتكم وواقف معكم في الدرب الإنساني المبارك الذي لله فيه رضى ولخلقه فيه صلاح، وإلى اللقاء والسلام عليكم، أخوكم موسى الصدر».

والأثر الثاني هو سبحة أهداني إياها أحتفظ بها كذخيرة غالية.

وأول من يجب أن يستفيد من سيرة الإمام موسى الصدر هم نحن رجال الدين فنتشبه به ونضع طاقاتنا في خدمة الشعب، ننفتح على كل الطوائف، ونقضي على التعصب الديني الذميم، وأن نعلم الشعب أن الله واحد وهو مصدر الأديان.

﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة﴾ صدق الله العظيم.

الفصل الثالث

الإمام... وحديث الذكريات

الإمام... وحديث الذكريات

جاء في مؤتمر صحفي عقده مسؤول من حركة أمل قال فيه: «في الواحد والثلاثين من هذا الشهر (آب ١٩٨٥) تكتمل سبع سنوات على اختفاء القائد السيد موسى الصدر، وأن حركة أمل تعلن الإضراب العام في جميع الأراضي اللبنانية طيلة نهار السبت المقبل في الواحد والثلاثين من آب وتناشد المواطنين جميعاً تلبية الدعوة استنكاراً للجريمة المتمادية جريمة اختفاء الإمام في ليبيا مع رفيقيه الشيخ محمد يعقوب والصحافي عباس بدر الدين».

عندما كان الرئيس شارل حلو رئيساً للجمهورية كان له مع السيد نوع من التجاذب الفكري السياسي والاجتماعي وإن كان هناك مواقع سياسية مختلفة في بعض الأحيان، لقد ذكر بمناسبة مرور سبع سنوات على غياب السيد قال متذكراً: «كنت رئيساً للجمهورية يوم إنشاء المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى ورحبت كل الترحيب بهذه المبادرة الطيبة بانتخاب الإمام موسى الصدر على رأس المجلس، والكل يعلم مدى ما كان لي من علاقات الود والثقة المتبادلة مع الإمام الصدر قبل وبعد انتخابه».

الرئيس شارل حلو كان على صلة بالسيد وخصوصاً الصلات الفكرية وقضايا الثقافة المعاصرة والإنسان المعاصر بالإضافة إلى حوار حول قضايا الفكر السياسي في العالم...

وتابع الرئيس حلو قائلاً: «كنا نلتقي حول موقف موحد من القضايا العربية والدولية. أما على الصعيد الداخلي فكان الإمام الصدر يبذل جهوده في سبيل قضية وطنية وإنسانية جعلها قضيته وسماها المحرومين. وعلى هذا الصعيد أي صعيد المحبة يعلم الجميع كيف أن هذه الطوائف المسيحية فتحت قلبها وأنديتها لسماحة الإمام الصدر. ولا ريب أن هذه المحبة كانت شاملة ولا تزال ماثلة للأذهان صورة الإمام الصدر وهو يحاضر في كنيسة الكبوشين ولم أكن أنا صاحب الدعوة بل حضرات الآباء أنفسهم وكنت أحد المشتركين في ندوة جرت في الكنيسة وكان الإمام الصدر محط الأنظار فيها وأضاف ولا أسرد ذلك كحجة سياسية بل للتأكيد بأن هذه طريق وتوجيه رسالة الإمام الصدر تتمحور حول التوحيد والمحبة».

أما رئيس مجلس النواب الأستاذ نبيه بري فكان يتردد باستمرار إلى المجلس في الحازمية ويجتمع مع الإمام، أذكر في إحدى الليالي سرت إشاعة بأن «رئيساً» جنوبياً تقليدياً يريد الحضور إلى المجلس ومصالحة السيد... هذه الإشاعة شاعت في حوالي منتصف ليل ٢٩ آذار ١٩٧٥... لكن دولة الأستاذ نبيه عارض الفكرة ورفض الإشاعة أياً كان مصدرها... وقد وافقه مجموعة من الشباب المثقفين على رأيه.

كان الرئيس نبيه بري والرئيس الحسيني من الأصدقاء المميزين للإمام وكانت الصلة والتشاور دائمين في كافة المجالات وهذه أمور معروفة لا تحتاج إلى تفصيل.

كان للسيد علاقة شخصية وودية مع سيادة الرئيس حافظ الأسد تعود إلى ما قبل عام ١٩٧٣، وكان السيد يتحدث في مجالسه الخاصة عن بطولات الشعب والجيش السوري في حرب تشرين وعن القيادة العسكرية والسياسية الفذة لسيادة الرئيس وكان معجباً به وبعبقريته.

كان السيد يتمتع بثقافة عصرية واسعة واطلاع على ضروب المعرفة

والعلوم وفي طليعتها العلوم الإسلامية التي كان يتقنها بحكم نشأته وتعلمه وأبحاثه العميقة في الدين الإسلامي. يضاف إلى ذلك الثقافة العصرية العلمية والتاريخية المميزة التي كانت ركيزة محاضراته في الكليات والجامعات والمؤسسات العلمية، كالجامعة اليسوعية والجامعة الأميركية وكلية بيروت الجامعية بالإضافة إلى كلية الحقوق في الجامعة اللبنانية وكلية العلوم ومعظم فروع الجامعة.

وله محاضرات في المدارس الإسلامية والمسيحية (مدارس الرهبان والآباء). كانت المدارس المسيحية تتهافت لدعوته إلى محاضرات وكلمات توجيهية من وحي المجتمع المعاصر. كان الإقبال شديداً على المحاضرات بين الفئات الإسلامية والمسيحية كافة وخلال محاضرة له في مدرسة خاصة في بكفيا كانت القاعة الكبيرة للمستمعين تكاد تختنق لشدة الزحام.

والمحاضرات الدينية العلمية تأخذ مكاناً هاماً من المحاضرات التي كان يلقيها في المؤسسات العلمية العالية وفي غيرها بحكم اطلاعه الواسع وتحليله لبعض الأفكار العلمية والإيديولوجيات الحديثة... وكان في عرضه وفي تحليله عالماً في العلوم العصرية، يعرض الأفكار بدقة وأمانة ويطرح آراء بعض العلماء والمفكرين. على الصعيدين الإنساني والعالمي، يحلل التحليل المنطقي والعلمي لهذه الأفكار ويعرض آراء العديد من العلماء الغربيين والشرقيين حول الموضوع ثم يعود إلى طرح الأفكار العامة التي تناقض الركيزة الأساسية للمواضيع المطروحة...

ثم ينتقل إلى نقد الموضوع مباشرة ورأيه الشخصي بأسلوب مرن أسلوب نعتبره سبيلاً سالكاً يجمع قوة التعبير والسلاسة والسهولة وعمق الإيحاء... سلاسة وسهولة رفيعة لا تحول بين الناس والمحاضر.

وفي إحدى محاضراته في كلية الحقوق في الجامعة اللبنانية ألقى

محاضرة حول المشاكل الاجتماعية التي يعيشها لبنان... ثم بدأ وقت الأسئلة التي بلغت حدود المئة تقريباً... اعتذر السيد لضيق الوقت عن الإجابة عن هذا العدد من الأسئلة ثم اطلع في منزله على جميع الأسئلة والتعليقات.

وكان في رأيه أنه يريد أن يتعرف عن كثب إلى مشاكل وأمنيات وتفكير طلابنا في ذلك الحين.

كانت المصادر العلمية العربية والأجنبية والإحصاءات الخاصة في القطاع العام والقطاع الخاص، من المصادر للأبحاث والمحاضرات بالتنمية الاقتصادية والتنمية الاجتماعية في الريف والمدينة، في كراس صدر عن المجلس عام ١٩٧٤ وهو يتضمن المبادىء الأربعة عشر الاصلاحية وهي الإصلاحات الضرورية للمناطق المحرومة في الجنوب والبقاع وعكار... هذا الكتاب الصادر عن المجلس بتوجيه من السيد كان يعرض واقع الإنماء الصحي والاجتماعي والمدرسي والتعليم التقني ومصطلحات علمية صادرة عن بعثة ايرفد الفرنسية التي كان يرأسها الأب «لوبريه» الفرنسي في عهد الرئيس فؤاد شهاب. هذه المناطق المتخلفة اقتصادياً التي نسميها بالمناطق المحرومة... هي تلك التي لا يتناسب معدل النمو الاقتصادي فيها مع معدل زيادة السكان بالإضافة إلى ضآلة الدخل الفردي وضعف الإنتاج وقد سبق الإشارة إلى هذه النقطة.

التقديرات تشير إلى أن حوالي ٤٠٪ من اللبنانيين يعيشون من الزراعة أو ما يتصل بها ولا تتجاوز مساهمة القطاع الزراعي بنسبة ١٠,٧٪ من الدخل القومي حسب إحصاءات ١٩٧٢.

ولقد أشارت بعثة ايرفد برئاسة الخبير الفرنسي في شؤون التنمية الاقتصادية الاجتماعية الأب «لوبريه» ـ الذي كان يتمتع بشهرة علمية في العاصمة الفرنسية وكان الباحثون والطلاب في الصفوف العليا يهتمون بالنشرات والأبحاث العلمية الصادرة عن البعثة الفرنسية ـ إلى بعض البيانات المبينة في الجدول.

هذه المصطلحات والنتائج التي أشارت إليها بعثة ايرفد عن بعض المناطق... بالرغم من الفترة الزمنية التي تفصلنا عن الدراسة فإن جوهر الواقع ليس ببعيد عن النتائج التي توصلت إليها البعثة.

نعرض هنا بعض المصطلحات الصادرة عن البعثة التي سبق نشرها في الكراس الخاص الصادر عن المجلس كما سبق وعرضنا من قبل.

ـ جبل عامل:

المستوى	النسبة	النتيجة
الصحي	١	تخلف
التجهيز الصحي	١,٥٩	تخلف مطبق
التجهيز التقني	٠,٩٠	تخلف مطبق
التجهيز السكني	١,٢	تخلف باتجاه النمو
التجهيز المدرسي	٢,١٤	تخلف باتجاه التقدم
التجهيز الاجتماعي	١,٥٠	تخلف باتجاه النمو

ـ البقاع:

المستوى	النسبة	النتيجة
الصحي	١,٣	تخلف باتجاه النمو
التجهيز الصحي	٠,٦٥	تخلف مطبق
التجهيز التقني	١٩٤٦	تخلف باتجاه النمو
التجهيز السكني	١,٣٦	تخلف باتجاه النمو
التجهيز المدرسي	١,٥٠	تخلف باتجاه النمو
التجهيز الاجتماعي	١,٨٣	تخلف باتجاه النمو

في محاضرة «للسيد» في الجامعة الأميركية ذكر بأن المصلحة الوطنية لنهر الليطاني لم تتجزأ، يعتمد على الدراسات الفنية للتصميم المبدئي العام الذي يؤلف نقطة الانطلاق للدراسات النهائية التفصيلية العائدة لمجمع المنشآت... وهي تقارير وخرائط ودراسات أولية رسمية وغير رسمية من خبراء لبنانيين وأجانب، لقد ذكر اعتماداً على هذه الدراسات الفنية أن الأراضي في الفئة الأولى الأكثر جودة والتي لا تحتاج إلى تحسينات مثل وضعها تحت الري تتقبل أصنافاً عديدة من المزروعات وهي ذات إنتاج مرتفع. أما الأراضي من الفئة الثانية وهي أقل جودة من الأراضي في الفئة الأولى تحتاج إلى تحسينات قبل وضعها تحت الري وهي تتقبل أصنافاً معينة من المزروعات المروية.

بعض هذه المعلومات مستقاة من إحدى الدراسات لوزارة الموارد المائية والكهربائية وقد أشرف عليها أحد الوزراء الاختصاصيين. وكان يحتفظ المصدر نفسه عن زيادة الأراضي الصالحة للزراعة وزيادة الإنتاج الزراعي في الجنوب والطرق الآيلة إلى تحسين وتوسيع الإنتاجية لبعض الأراضي المزروعة في الجنوب اللبناني.

وكان أمامه في عام ١٩٧٤ مشروع لإنماء المناطق الحدودية في الجنوب التي كانت تعاني من أهوال الحرب اليومية والأوضاع المعيشية الصعبة بالإضافة إلى النزوح إلى حزام الفقر والبؤس في ضواحي العاصمة... بالإضافة إلى مشروع البحيرات الاصطناعية في أقصى الجنوب وكان لديه الخرائط بالإضافة إلى التقارير الفنية حول الموضوع. لقد ذكر الكاتب الفرنسي «بيير ليوتي» بأن كل اتجاه للمياه وكل قناة تصطدم وعقبات سياسية واقتصادية وطائفية حسب اتجاه القناة لهذه الجهة أو لأخرى بحيث تتميز فئة على فئة وهنا تكون الصعوبات... ثم يضيف الكاتب الفرنسي في كتابه (لبنان الحديث) باللغة الفرنسية «جميع البلدان لديها سدود والليطاني حالة مشهودة للمعطيات

المتغيرة للتجربة والضرورات العصرية فالماء يفيض عن الحاجة في أثناء الشتاء في أول الربيع تسيل الأنهر التي تتغذى بكتل الثلج وفي الأشهر الثمانية الأخرى تشح الينابيع وبعضها يقارب النضوب وعلى هذا فلا بد من استعمال طاقة الاحتياطي الشتوي بوسائل تقنية جديدة وفي شكل سد كبير».

ثم يتابع قائلاً «أما بالنسبة إلى الري فسوف تستفيد أراضي لبنان الجنوبي بـ ٤٨٠ مليون ل. ل. كزيادة في الإنتاج» يعود تقديره في أوائل الستينات... التقديرات الحالية تشير إلى زيادة الإنتاج الزراعي بنسبة تفوق بكثير الأرقام المذكورة. ننتقل إلى أهمية تنمية الصناعات الريفية والحرفية إذ أن وجود معاهد في المناطق الريفية متخصصة في تعليم حياكة السجاد والنسيج والصناعات الجلدية الخفيفة وغير ذلك يساعد النسبة الكبيرة من النساء العاطلات عن العمل إلى إنتاج مصنوعات لها قيمتها في عالم الصناعة الحرفية التي يستطيع كل بيت أن يؤمن إنتاجاً مقبولاً دون التفكير في كلفته أو تجهيزه. فقد لا تحتاج إلا إلى نول وخيطان ملونة للسجاد وفرن لبعض المصنوعات الفخارية والزجاجية الملونة بالإضافة إلى التطريز والخشب المطعم بالصدف والنحاس المحفور والمصنوعات الفضية والحياكة المطرزة والرسم على الزجاج.[1]

تبدو هذه الأعمال بسيطة ولكنها تعتبر في الواقع أعمالاً حرفية ذات طبيعة فنية واللبنانيون من أذكى الشعوب في تعلم الحرف المبدعة التي تشكل عنصراً اقتصادياً مهماً في حياتهم. وكان السيد يهتم بتشجيع الحرفيين ويعتبرها من أفضل الوسائل التي تشجع الحرفيين في قراهم. أنشأ مؤسسة جبل عامل وقضى على حالة التسول في صور.

---

(١) قضايا التنمية في لبنان المؤلف ـ ص ٦١ .

وأسس المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى وساهم بقوة في إنشاء مجلس الجنوب كما أسس حركة «أمل» كان شديد الاهتمام بالمؤسسات المهنية التي تخرج عمالاً فنيين وطلاباً اجتازوا الصفوف المهنية والاختصاصات المتنوعة.

كان يطلع على كل شيء في المؤسسة، على حسن سير العمل بشكل عام بالإضافة إلى الطريقة التي تتصرف بها الإدارة حيال الأساتذة والطلاب. وهو دقيق في ملاحظاته سريع البديهة لا يترك نقطة إلا ويستوضح طالباً جواباً سريعاً إدارياً وقانونياً...

كان يسمع الشكاوى ويطلب التدقيق ويعرف من خلال طريقة العمل من يعمل ومن يريد الاعتماد على الكلام المنمق...

لا يتردد في توجيه النصح واللوم لأي مسؤول في المجلس، أذكر في إحدى الجلسات قدمت لجنة الأوقاف له مرحلة الإحصاء الأولية، فأعرب عن سروره من تحقيق هذا الملف الأولي التمهيدي وقال: «أمنيتي أن تكون هناك سجلات نهائية وإحصاءات شاملة للأوقاف في لبنان... وهذا بداية الغيث». وعندما سألني أحد أعضاء لجنة الأوقاف بعض الأسئلة عن طريقة الإحصاء المتبعة... أجبته على السؤال كما كنت أتصور في ذلك الحين. فما كان من السيد إلا أن التفت بسرعة وقال: «على الجواب أن يكون دقيقاً... والدقة مطلوبة في جميع المجالات وخصوصاً في شؤون إحصاء الأوقاف التمهيدي»...

في السنة الأولى لتأسيس المجلس أي في عام ١٩٧٠ سألني السيد عن عمل أحد الموظفين وطريقة عمله في ذلك الحين... فما كان مني إلا أن أجبته بسرعة بأن هذا الموظف يعمل جيداً ولا ينقصه شيء في عمله... فأجابني بالحرف الواحد: «يا أستاذ عدنان... قبل أن تحكم على موظف أو على إنسان لا بد من اختباره لمرحلة طويلة ولا تستطيع أن تحكم على الناس بسرعة قبل التأكد من خلال مراحل الزمن والعمل».

كان السيد يتمتع بشخصية قوية وجذابة عندما يقتنع بشيء معين يهتم بتنفيذه ولا تهمه العقبات والصعوبات والضغط النفسي أو السياسي الذي يسببه له وللمقربين. كان إنساناً ودوداً رقيقاً... لا يحب أن يؤذي موظف أو مقرب، كان يعرف أشياء كثيرة من خلال نظراته واستنتاجاته...

كان لا يقبل التحدي ولا التجني وكان دائماً يردد: «من يقبل التجني...؟».

كان إذا عزم على شيء لا يتراجع... يفكر طويلاً ويحسب ويدقق ولكنه في لحظة اتخاذ القرار... يبدأ العمل ويسير في خطى سريعة للوصول إلى التنفيذ.

أذكر حادثة سألني السيد بها: «الموظف الفلاني أرى وجهه أصفر هل هو مريض؟ عليك الدخول إلى مشاكله النفسية ومحاولة التخفيف عنه».

طلبت الموظف وسألته عن أحواله الصحية والنفسية... ـ فأجابني بأنه تعبان لأنه يعمل بعد الظهر وفي الليل خارج المجلس وآثار التعب البادية على وجهه نتيجة الإرهاق في العمل.

كان يردد بأن قطاع التجارة والخدمات يعتمد على الاحتكار... وأن العدالة الاجتماعية بعيدة عن واقع الأنانية التي تسود الاحتكار في لبنان... علماً بأنه يؤيد نظام الاقتصاد الحر فيه.

هنا لا بد من الاشارة إلى الأفكار التالية:

ـ في الزراعة يوجد احتياطي بشري في المناطق المتخلفة اقتصادياً وجمهرة الفلاحين ينبغي أخذها بعين الاعتبار ولو كانت هي الطبقة البائسة، يضاف إلى ذلك مساعدة هذه الطبقة في الخروج من حلقة الفقر معناه تشكيل سوق داخلية جديدة يتنوع طلبها للسلع بحسب زيادة المداخيل.

ـ لا بد من الإشارة إلى أهمية إنشاء مراكز زراعية وإنشاء شبكة من التعاونيات هدفها تقديم البذار المؤهل والأسمدة والأدوية الزراعية بأسعار الكلفة، ثم التسليف الزراعي لصغار المزارعين هذا بالإضافة إلى تصميم المشاتل الزراعية وتأمين النصوب للمناطق وتحريج المشاعات وزراعة السفوح الجبلية في الجنوب.

ـ التنمية الزراعية، في لبنان المستقبل، تشكل القوة الرئيسية لمجابهة الفقر والحرمان. ففي زيادة الإنتاج تزيد الطاقة الإنتاجية للاقتصاد، والمؤشرات لزيادة نسبة الإنتاج يمكن أن يتحقق اعتماداً على الأهمية الخاصة للاستثمارات في القطاع الزراعي ثم الفاعلية والإنتاج لهذه الاستثمارات، علماً بأن تجميع رأس المال الخاص بالاستثمار له أهمية في عملية البناء الإنمائي، فالنسبة التي تسمح بتحديد قوة التنمية لبلد ما هي نسبة الاستثمارات أي نسبة الدخل المعد لتركيز طاقة إنتاجية جديدة.

كان السيد بطبيعته متفائلاً دائماً يردد بأن: «كل مشكلة لها حل» بالرغم من الصعاب والمشاكل المستعصية في الجنوب التي خلفتها إسرائيل وظل يحذر من أعوان إسرائيل في المنطقة ويعتبرهم مسؤولين جميعاً عما يحل من المصائب والقصف اليومي والخراب المعروف لدى الجميع.

كان يسهر الليالي ويعمل بصورة دائمة في الليل، لقد كنا نلاحظ في بعض الأحيان مواعيد في منتصف الليل وأحياناً بعده... لقد شكا للسيد سكرتيره في عام ١٩٧٠ من أن عائلته تخاف عليه لدوامه في ساعة متأخرة من الليل... ضحك وقال له: «أن من يعمل معي عليه أن يتحمل شكاوى العيال من السهر المتواصل». لقد كان المحور الأساسي لجميع الأعمال المهمة في المجلس كحركة، كان يتحرك بسرعة في جميع المجالات، وذكر مرة في شهر رمضان بأنه يسهر إلى حوالي الخامسة والنصف صباحاً وفي أكثر الأحيان يصلي ويقرأ الدعاء.

يتمتع بقدرة احتمال وصمود يصعب أن يتحملها الشباب. كان يتحمل المشاكل الكبيرة والصغيرة على السواء وفي هذا الخضم لديه ذاكرة قوية وخصوصاً في المرحلة الأولى من تأسيس المجلس.

أذكر في مرحلة تأسيس المجلس، قبل تطبيق النظام المالي، كان يلاحظ كل شيء، حول تكرار الخطأ طالباً عدم التكرار... وعدم قبوله الأعذار.

كان كبيراً وقوياً يرفض العنف همه أن يعيش لبنان وطوائفه على نوع من الصراط الفكري الذي يهدف إلى إصلاح لبنان... وهو طويل البال كان يتحمل ويصمد صابراً لإيمانه العميق من جهة وحرصاً على لبنان من دوامة العنف من جهة أخرى، بالإضافة إلى خوفه الشديد من التوتر الطائفي والمشاكل الطائفية التي يمكن أن تسبب خضات غير مشكورة يمكن أن تجتاح البلد.

أحب لبنان من كل قلبه وكان لا يقبل بالعنف كوسيلة لفرض شروط وشروط مضادة. أذكر أنه بعد أحداث ربيع ١٩٧٥ جمع السيد مجموعة مهمة من الشخصيات الفكرية والسياسية من معظم الطوائف اللبنانية وكان أكثرهم من الأصدقاء للمجلس وقد حضر مسؤولون فلسطينيون في ذلك الحين. وبدأ حوار ونقاش طويل يهدف إلى إبعاد لبنان عن دوامة العنف الطائفية ومشاكل التشنج النفسي والسياسي.

كان في ذلك الحين يتصرف من زاوية مستقلة وعلى صلة دائمة بجميع الأطراف اللبنانية والفلسطينية طالباً حقن الدماء وتغليب لغة العقل والحوار والمنطق على ما عداها من لغات يمكن أن تؤدي بالجميع إلى مهاوي الهلاك.

لا تزعم بجديد عندما تقول بأن الواقع السياسي شيء والتيارات السياسية الإقليمية والدولية شيء آخر...

لقد تلاحقت الأحداث قبل شهر نيسان ١٩٧٥... كان السيد يعتقد

بأن الحوار الذي يعتمد العقل والمنطق كفيل بإزالة عقبات كثيرة من واقع الحال في لبنان.

وهو بطبيعته لا يحب العنف بل كان وفي جميع الأحيان يعتمد في محاضراته وأحاديثه على العقل الإنساني في تحليل الواقع السياسي... يشدد على الحوار الإنساني بين أبناء الوطن الواحد... وأن المسلمين والمسيحيين هم أخوة وأبناء وطن واحد ويطالب عبر وسائل الإعلام والمحاضرات والدراسات بتخفيف البؤس والتهجير... لقد كانوا يندفعون يومياً إلى المجلس لأنهم تركوا كل شيء في الجنوب ولم يبق معهم شيء. كان يطالب بحقوق المواطن وإنصافه من أقصى الجنوب إلى أقصى الشمال. وخلف تياراً سياسياً واجتماعياً وإنمائياً بين أوساط الطلاب في الجامعات والكليات المختلفة في لبنان.

في بعض الأحيان يلوح بالسيف دون أن يفكر باستعماله أو الضرب به... والعديد من الشخصيات الإسلامية والمسيحية يؤيدون السيد في مطالبه الإصلاحية والإنمائية العادلة وكانوا يعتقدون بأن سياسة التأجيل والمماطلة يمكن أن تؤدي إلى خراب لبنان على الجميع، إن التحدي يخرج الإنسان ويدفعه إلى سلوك طرق عنيفة لا يقبل بها ولا يرضاها. عام ١٩٧٤ كان في إحدى المدن الجنوبية انتخابات فرعية وكان الطرف الآخر قد حشد جميع إمكاناته في سبيل معركة فرعية انتخابية. لقد حاول بعض المرشحين المطالبة بتدخل المجلس علناً في هذه المعركة ولكن السيد رفض إقحام المجلس مباشرة.

عمل في هذه الأثناء على حصر المرشحين بمرشح واحد، كما أنه كان يراقب أعمال الدولة وشكاوى المواطنين وكان يعتمد بضرورة إجراء انتخابات نزيهة وحرة، في الوقت نفسه اتصل، قبل الانتخابات بقليل برئيس الوزارة في ذلك الحين، وشدد عليه بضرورة إجراء انتخابات حرة رافضاً أي محاولة تدخل تأتي من أي كان...

الفصل الرابع

أجواء ما قبل الحرب

أجواء ما قبل الحرب

ما زلت أتذكر في تشرين عام ١٩٧٣ عندما ذهبت إلى مكتب السيد أعرض عليه بعض المعاملات الإدارية التي تتطلب موافقة الرئيس حسب القانون الأساسي للمجلس الذي يعتبر المجلس مصلحة عامة ذات نفع عام.

كان السيد ومعظم أعضاء المجلس والهيئة الشرعية تعتقد بأن هناك ثغرات في قانون إنشاء المجلس والنظام الداخلي ولا بد من تعديلات أساسية تمكن رئيس المجلس والأعضاء من ممارسة حقوق وصلاحيات وأمور عائدة إلى المجلس، منها ولاية رئيس المجلس، وقضايا الأوقاف وإيضاح الغموض والإبهام الذي وقع فيه المشترع في قانون تأسيس المجلس.

نذكر على سبيل المثال ضرورة إيضاح صلاحيات المجلس بإدارة الأوقاف والإشراف عليها وصلاحيات المحاكم الشرعية وغير ذلك مما يحتاج إلى صيغ قانونية جديدة.

وهناك المطالب الاقتصادية والاجتماعية في مناطق الجنوب والبقاع وعكار والضاحية سميت المطالب الأربعة عشر.

من المعروف بأن المجلس بهيئته الشرعية والمدنية قد وافق في الأصل على تعديلات النصوص التي تختص بتمديد ولاية الرئيس بالإضافة إلى تعديل نصوص لا تتناسب مع واقع المجلس. لقد أرسل مشروع تعديل قانون المجلس

بموافقة الهيئات القانونية التي يتألف منها المجلس إلى المجلس النيابي، للتصديق على مشروع التعديل.

ولكن وجود الرئيس الأسعد في ذلك الحين، دفع مشروع القانون الجديد إلى السراديب والمتاهات... خصوصاً إذا علمنا بأن انتخابات الرئاسة وأعضاء الهيئتين الشرعية والمدنية كانت على الأبواب.

لقد حاول الوسطاء وأصحاب المساعي الحميدة في أوائل عام ١٩٧٤ التوسط وبحث موضوع الخلاف ولكن بقي الأمر دون جدوى.

وبحث الموضوع على أعلى المستويات في الدولة وفي مجلس النواب ولكن رئيس المجلس النيابي رفض أي حل يساعد على الإفراج عن المشروع الموجود في أدراج رئاسة مجلس النواب في ذلك الحين، وفي أواخر عام ١٩٧٣ كنت في مكتب السيد لعرض أوضاع الأمانة العامة وبعض الأمور الإدارية وكان يبدو عليه بأنه غير مرتاح... سألته عن الحالة العامة فأجابني قائلاً: «الدولة تحاربنا وتستعمل جميع الوسائل ولا أستبعد أن يحصل عراك... الدولة لم تنفذ لنا طلباً واحداً ولا تريد أن تنفذ... تريد أن تشبعنا كلاماً... وتريد في الوقت نفسه أن تعطل أعمالنا ومصالحنا كمجلس وطائفة... وهناك من يركب مركبة الدولة ليشهر السيف في وجهنا... إن للحقد حدود وللأذية حدود... ولا نعرف إلى أين الدولة تريد دفعنا... هل للمواجهة؟ لا أعرف؟ إننا لن نتراجع ولن يقف أمامنا شيء...؟».

إن الواقع الاجتماعي الصعب والظروف الاقتصادية التي تعاني منها مناطق الجنوب والضاحية والبقاع وعكار وبعض المناطق يضاف إلى ذلك موقف الدولة والحكومة اللامبالي... ساهمت في أن يصبح الوضع خطيراً في عام ١٩٧٤... خصوصاً بأن الدولة تعاني من تركة ثقيلة ومخاوف متوقعة على الصعيدين الداخلي والخارجي، فالجنوب يعاني من التهجير والخوف من

الليالي المأساوية التي يعيشها على الحدود وفي وسط الجنوب بالذات.

هناك قسم من أهالي الجنوب بدأ يزحف إلى الضاحية الجنوبية منها الشياح وحي السلم ومناطق الغبيري وأحياء عديدة من الضاحية.

لقد كان الجنوب يعاني من حالة غليان، هناك العمال والفلاحون يتركون أرضهم ليذهبوا إلى حزام البؤس والفقر الذي يحيط بالعاصمة بيروت حتى معظم نواحيها، وقد عمل قسم منهم في الصناعة بالرغم من جهلهم أصول التدريب الصناعي، بالإضافة إلى عوامل أخرى جعلت أجور العمال القادمين الجدد في القطاع الصناعي تقل كثيراً عن الأجور الحقيقية للعمال الصناعيين... الذين كانت تستغلهم المصانع أسوأ استغلال لتحقيق أقصى ما يمكن من الإنتاج بأقل قدر ممكن من التكاليف.

من هنا نعرف أحد الأسباب المهمة للتجمعات السكانية والأكواخ في ضواحي العاصمة وارتفاع البطالة والفقر بينهم لعدم استيعاب القوى العاملة النازحة من الريف دون أن تكون مهيأة للعمل الصناعي أصلاً. كما أن القسم الأكبر من الطبقة العاملة كان في حالة تقرب من الفقر الدائم أو أكثر ففي عام ١٩٧١ ولدى مباشرة صندوق الضمان الاجتماعي في تطبيق فرع المرض والأمومة تبين أن ٧٠٪ من أفراد الطبقة العاملة لا تتجاوز أجورهم الحد الأدنى للأجور.[1]

وهذا يعني حالة فقر لهذه الأكثرية مع مشاكل اجتماعية كالشعور بالظلم والخيبة والاستغلال والنقمة والرفض وهذا سبب مهم في الهزات الاجتماعية.

كانت أزمة الجنوب خصوصاً والمشكلة اللبنانية عموماً قد بلغت ذروتها

---

(١) الظروف الاقتصادية للحرب اللبنانية للمؤلف، ص ٦٧ - ٦٨.

في عام ١٩٧٤ إذ أن السنوات الثلاث السابقة لعام ١٩٧٤ أظهرت أن العلاقات اللبنانية الفلسطينية والعلاقات اللبنانية الداخلية والعلاقات السياسية بين السياسيين تسير نحو المأزق الذي وقع فيه لبنان فيما بعد.

إن المراقبين المهتمين بشؤون الشرق الأوسط ومن ضمنها القضية اللبنانية كانوا يرصدون تعقيداتها في الجو الطائفي الذي أخذ يشتد ويترسخ بين جهات لبنانية عديدة ومختلفة والتعقيدات السياسية التي كانت قائمة بين الدولة من جهة والفلسطينيين من جهة أخرى وكانت البداية في معارك الجيش اللبناني والفلسطينيين في أيار ١٩٧٣.

ثم اتفق على «بروتوكول ملكارت» الذي بقي حبراً على ورق لم يبصر النور أبداً. هذه الحرب السريعة (عدة أيام) خلقت نوعاً من ردة الفعل العنيفة لدى بعض المجموعات اللبنانية التي أخذت تدعو إلى طريقة في التفكير والمفاهيم في المدارس والثانويات والجامعات والمؤسسات الخيرية والثقافية والسياسية على كافة أنواعها.

نعود إلى واقع الجنوب فنقول بأن أهل الجنوب يتلقون الأحداث والمشاكل ويتخبطون بها دون أية مسؤولية لما يجري من حولهم وخلفهم، المشكلة أكبر منهم بكثير وكان أقصى الجنوب يعذب ليكسب قليلاً من التبغ وبعض المزروعات البعلية والأشجار المثمرة. في بعض المناطق... كان المواطن يعذب وأمله الوحيد بيت صغير وأرض يتمسك بها، فجأة يفقد الأمل ويترك كل شيء ليذهب إلى الضاحية وينضم إلى بقية العمال الفقراء.

هذه الطبقة تشكو من فترة العمل المتواصل بالإضافة إلى الدخل المنخفض الذي لا يتجاوز ثلث دخل العمال في القطاعات الأخرى.

أما الوضع السكني في الريف للعمال الزراعيين فهو متخلف، فالمساكن بمعظمها تتألف من بيوت صغيرة لا تفي بحاجات وسكن العائلات الكبيرة

العدد في الريف وقد لوحظ غياب التشريعات والقوانين اللازمة لجهة ساعات العمل اليومي وأيام العمل في الأسبوع.

وكانت زراعة التبغ تؤدي دوراً رئيسياً في إنتاج المزارع الجنوبي إذ كانت قبل الحروب الأهلية تشكل حوالي ٨٠٪ من دخل المنطقة الزراعية وكان يعمل فيها ما يزيد على ١٥٠ ألف عامل كما تشير بعض التقديرات.

ولا يمكننا أن تنسى الظروف السياسية المحلية والتنفيع الذي يحيط بها والأسعار التي توقع المزارع الجنوبي والفلاح في صعوبات معيشية أو حياتية حيث يسيطر الهم والقلق على قطاع واسع من السكان العاملين في هذا القطاع... يضاف إلى ذلك بأن توزيع الرخص والمساحات على المزارعين لا تخلو من ظاهرة التسييس والتنفيع وهذه مشكلة تثير نقمة وسخط صغار الفلاحين ثم تأتي مشكلة التسليم ولجان الاستلام المختصة بإدارة الريجي وما يرافق من عملية سحق وقهر للمزارع في حين أن كبار المزارعين وأصحاب النفوذ يحافظون على أسعار تقليدية مرتفعة.[1]

كان الجو العام السياسي الاجتماعي في عام ١٩٧٤... ينذر بشر مستطير... وبدأت الضغوطات الاجتماعية على المجلس وعلى السيد... هناك عدد كبير من الشبان والكهول تركوا الجنوب يبحثون عن دخل متواضع يغطي حاجاتهم... بسبب التهجير والتشريد.

كان «السيد» مع بعض اعضاء المجلس الموظفين والأصدقاء يحاولون تخفيف حدة المشكلة لكن الأمر صعب التحقيق. فهذه الأعداد لا يمكن أن يستوعبها سوق العمل، خاصة إذا علمنا تركيب النظام الاقتصادي والشركات الخاصة وواقع القطاع الخاص، هذه المشكلة تبدو بأنها مشكلة وطنية، إذ لا يمكن لأي فئة أن

---

(١) الظروف الاقتصادية للحرب اللبنانية، المؤلف، ص١٤٧ .

تقدم حلولاً سحرية وأن تحل محل الدولة والقوى المسيطرة على القطاع الخاص.

كنت أشاهد مزيداً من الفقراء المهجرين يطلبون العون والمساعدة من المجلس والمجلس ليس لديه المال لأن وارداته الأساسية تعتمد على تبرعات المغتربين، وعلى حفلات التبرعات التي كانت تقام في بعض الأحيان في مقر المجلس. وكان السيد يقوم برحلات إلى دنيا الاغتراب في أفريقيا وغيرها للحصول على تبرعات لدعم ميزانية المجلس، وأذكر بأن المجلس محدود الإمكانيات لا يمكنه حل مشكلة جميع العاطلين عن العمل وتقديم منح إسكان للمهجرين... ولكن السيد ـ قبل الحرب ـ كان يؤيد المطالب العمالية التي في معظمها مطالب اقتصادية واجتماعية عادلة... ومعظمهم من المناطق المتخلفة اقتصادياً، وكانت وسيلة العمال الإضراب والتظاهر لتحقيق المطالب.

أذكر حادثة في أوائل عام ١٩٧٥ وكان السيد يريد الرد على الدولة بخصوص حقوق الشيعة في الوظائف الكبيرة خصوصاً موظفي الفئة الأولى والثانية بعد أن أخذ الموضوع أهمية إعلامية، وقد كلفني السيد بزيارة السيد حسن فرحات في مجلس الخدمة المدنية، وصلت إلى مجلس الخدمة المدنية دخلت مكتب السيد فرحات فاستقبلني بحفاوة استبشرت من خلالها خيراً.

وبدأ الأستاذ فرحات يحدثني عن ظروفه في مجلس الخدمة وبأنه موظف لا يستطيع أن يسلم لائحة موجودة في مجلس الخدمة بالموظفين الشيعة ثم أخذ يعرض عليَّ بعض مشاكله في الوظيفة وبأن ظروفه مقيدة لا يستطيع تجاوزها، وقد اقترح علي تقديم الموضوع من قبل المجلس إلى رئاسة مجلس الوزراء ومن هناك يصلهم المطلوب...

أعود قليلاً إلى الوراء لأذكر بأن السيد بدأ يشكو من ارتفاع وانخفاض سريع للضغط وقد عولج في لبنان وكان التحسن بطيئاً ثم سافر إلى باريس

للعلاج ودخل إحدى المستشفيات في العاصمة الفرنسية وقد عولج بعناية... فتحسن ثم أخذ يتماثل إلى الشفاء وعاد إلى لبنان.

وكان بطبيعته لا يحب العنف في معظم خطبه يلعن القاتل والقتال ويفضل الحلول السلمية والجهود الدبلوماسية وسياسة الحوار... نستثني من ذلك حالات التحدي التي حاول أن يمارسها بعض المسؤولين...

ولعل صلاته المتنوعة مع أبناء الطوائف المسيحية كانت تفرض أعمالاً وأفكاراً ذات تسلسل وذات وحدة تصلح لجميع الناس الاهتمام بالمطالب التي أعلنها مراراً.

لقد ذكر أحد الآباء الموارنة في تموز عام ١٩٧٤ بأن الرئيس السابق شارل حلو في خلوة مع جميع المطارنة والآباء من الطائفة المارونية... درسوا الخلاف بين السيد من جهة والدولة من جهة ثانية وعندما ذكر الأب كان الرأي متجهاً إلى موافقة السيد... خصوصاً بعد ما عرض الرئيس حلو الظروف والأسباب التي تدعو لاتخاذ هذا القرار.

وتحرك السيد في عام ١٩٧٤ وتحركت معه المطالب لأبناء الجنوب والبقاع وعكار والضاحية، وأصبحت معظم هذه المناطق تتحدث عن مساندة السيد ومطالبه، وبدأ النقاش في الليالي الحالكة حول مطالب عادلة، وعدم قبولهم هذا الحال من التخلف الاقتصادي والاجتماعي والسكني والصحي والتعليمي، بالإضافة إلى الشوارع والأزقة الضيقة في مناطق الضاحية والخدمات السيئة التي يشكون منها بالإضافة إلى ضآلة وضعف وتخلف خدمات الدولة في الشوارع، والماء والكهرباء وكأنهم يعيشون في عالم مزدوج، عالم الشوارع الفسيحة والعمارات الحديثة... وعالم يعيشونه وهو عالم معروف تارة يسمونه حزام الفقر وطوراً حزام البؤس والحرمان في ضواحي العاصمة وأحياناً حزام التخلف والحرمان.

واقتنع السيد في دخيلة نفسه بأنه لا بد من الضغط السياسي باستعمال القوة أو كما ذكر بعض الملقين شهر السيف في وجه الدولة والتلويح به دون استعماله إلا في حالة الضرورة القصوى.

لقد بدأت المهرجانات المسلحة والخطب العنيفة والحماسية في دفع مناطق بعلبك والهرمل إلى إعلان الولاء والتأييد للسيد ولعل مهرجان بعلبك في آذار عام ١٩٧٤ كان ضخماً وقوياً وصاخباً وبلغ عدد المشاركين فيه كما قدر في حينه بحوالي ٨٠ ألف شخص وكان السلاح منتشراً بكثرة خاصة بعد انضمام عناصر مسلحة عديدة.

ولهذا المهرجان ردات فعل قوية منهم من استغرب ظهور قوة ضخمة من العناصر المسلحة، كما اعتبر في نظر أصحاب هذه الفئة بأن ما حصل هو تهديد فعلي للدولة، كما أن بعض المجموعات اللبنانية اعتبرته يهدد مصالحها وامتيازاتها في المستقبل. وقد ذكر لي دبلوماسي لبناني: «بأن ما حصل في مهرجان بعلبك هو نوع من التحدي والإثارة والتحريض... ولا بد للفئات الأخرى من أخذ ما حصل بعين الجدية وأن استعراض القوة من جهة لا بد أن يحمل معه نتائج عند القوى الأخرى»... قال هذا بلهجة الحدة والانفعال... وقد لاحظت صعوبة السيطرة على المشاعر حول هذه البادرة، أما السيد وأنصاره فقد حاولوا المستحيل للتفاهم مع الدولة بالطريقة المباشرة والوسطاء وأصدقاء الطرفين... كما ذكرنا سابقاً ولكن الآذان بقيت غير مستعدة للسماع والأبواب موصدة بإحكام.

كان السيد يردد دائماً في مجالسه الخاصة وفي جلسات اللجان التي تدوم إلى ساعة متأخرة من الليل: «... من يقبل التحدي ويسكت عنه؟... إن للحقد حدوداً في هذه الدنيا ولكننا في لبنان نعيش مساوىء الحياة والسياسة بلا حدود... إن الذين «يطمعون» بالسيد وتعلقه بالسلام والمحبة... يجب أن

يعرفوا بأننا لن نسكت عن التحدي ولا نقبل التعامل بمبدأ التحدي والحقد... إن الدولة تعطينا الكلام والابتسامة دون تحقيق أي مطلب من مطالبنا أو حتى الالتزام بوعد ما في هذه الظروف الحالكة التي يعيشها الوطن».

«مطالبنا واضحة وعادلة ومعروفة وقد نشرناها في كراس خاص، لماذا يطلبون منا أشياء مستحيلة في حين أن الذين يتسلمون مقدرات هذا البلد من الحكم إلى الحكومة يعيشون في أبراج عالية وبعيدة عن واقع الشعب؟...».

وأذكر حادثة معينة... تأثر لها السيد وغضب وصارح بعض أعضاء المجلس الموجودين قائلاً: «فوالله لا نقبل بهذا ولا نسكت عنه ولن أتراجع وأعدكم بأني لن أتراجع ولو بقيت وحدي في الساحة... فوالله لو بقي سيف النضال بيدي وحدي فإني لن أتراجع».

كان السيد كما ذكرنا من قبل ينشد السلام والعدالة في هذا البلد... فهو لا يقبل العراك والحروب والقتال لأنها ليست من طبيعته... بل إنه كان دائماً يكرر بأنه: «طاقة معنوية في خدمة اللبنانيين يضعها في خدمة الجميع لصالح هذا البلد... ولجميع أبناء الطوائف الأخرى».

السيد من النوع الدبلوماسي في ممارسة مهامه اليومية والعادية ولكنه لا يقبل التعدي من أي شخص كان... كبيراً كان أم عادياً من سلطة مركزية أو سلطة محلية، من سياسيين محترمين أو سياسيين عاديين... المعتدي في نظره هو من يحاول حشر المجلس أو التطاول على مركزه وعلى عمله وممارسة سياسة معادية من أي نوع كانت.

للسيد أثره البارز من خلال محاضراته في المراكز الجامعية والكليات والمراكز الثقافية كان يخطب ويحاضر ويناقش ويقدم التقارير الرسمية عن الليطاني وواقع الليطاني ويستشهد بتقارير لوزراء اختصاصيين ومأساة الجنوب والجنوبيين ومشاكل التهجير.

خلال محاضراته كان يقدم خلاصة عن التقارير العلمية التي كانت بحوزته وما أكثرها من خبراء لبنانيين أو خبراء أجانب قدموا دراسات فنية لبعض المناطق اللبنانية المتخلفة، وفي محاضراته في كلية بيروت الجامعية كان السيد يذكر الإحصاءات ويقدم الأرقام الرسمية بلسان مسؤولين اختصاصيين كان في عمله وكأنه باحث علمي دقيق الملاحظة والاستنتاج يربط الإحصاءات وخلاصة الدراسات الفنية التي بحوزته... ليصل إلى المآسي الاجتماعية والإنسانية التي تعانيها معظم المناطق اللبنانية.

وقد ذكر لي أحد الحاضرين... بأن السيد يملك مقدرة عجيبة في دفع الطرق العلمية نحو الخط الإيجابي.[1]

---

(١) نعرض هذا الرأي على سبيل الإطلاع فقط.

الفصل الخامس

الواقع الاجتماعي ـ نظرة عامة

الواقع الاجتماعي ـ نظرة عامة

التنمية الزراعية تشكل القوة الرئيسية لمواجهة الفقر والحرمان. ففي زيادة الإنتاج تزيد الطاقة العامة الإنتاجية للاقتصاد، والمؤشرات لزيادة نسبة الإنتاج يمكن أن تتحقق اعتماداً على الأهمية الخاصة للإستثمارات في القطاعين الزراعي والصناعي ثم الفعالية والإنتاج لهذه الاستثمارات، علماً بأن عملية تجميع رأس المال الخاص بالاستثمار له أهمية في عملية البناء الإنمائي. فالنسبة التي تسمح بتحديد قوة التنمية لبلد ما هي نسبة الاستثمارات أي نسبة الدخل المعد لتركيز طاقة إنتاجية جديدة.[١]

---

(١) سبق الإشارة إلى ذلك.

توزيع المؤسسات الصناعية حسب المحافظات والنشاط الاقتصادي عام ١٩٧١.

نـــــوع النشـــاط	بيروت	جبل لبنان	لبنان الشمالي	لبنان الجنوبي	البقاع	المجموع
٣١ - صناعة المواد الغذائية والمشروبات والتبغ	٥٥٥	١٠٦٥	٧٩٢	٣٦٨	٢٦٨	٣٠٤٨
٣٢ - صناعة المنسوجات والملبوسات والجلود	٢١٦١	٢٤٢٧	١٤١٠	٦٢٧	٥٠٣	٧١٢٨
٣٣ - صناعة الخشب والمصنوعات الخشبية والمفروشات	٧٦٦	١١٦٠	١٠٧١	٢٤٤	٢٢٦	٣٤٦٧
٣٤ - صناعة الورق والأصناف الورقية، الطباعة والنشر	٤٥٧	١٩٠	٣٩	١٣	٩	٧٠٨
٣٥ - صناعة الكيميائيات ومنتوجاتها ومشتقات النفط والفحم والمطاط والبلاستيك	٥٤	١٦٩	٣٩	١١	١	٢٧٤
٣٦ - صناعة المواد غير المعدنية ما عدا مشتقات النفط والفحم	٦٣	٢٦٤	٢٠٤	١٣٢	١٣٤	٧٩٧
٣٧ - صناعة المعادن الأساسية	١٥	١٢	٢	-	-	٢٩
٣٨ - صناعة المنتجات المعدنية (الآلات والمعدات)	٤٠٠	١٠٨٣	٢٦٠	١٦٧	٢١٧	٢٢٢٧
٣٩ - الصناعات التحويلية الأخرى	٢٨٠	١٠٢	٣٤	١	١٠	٤٣٩
مجموع الصناعات التحويلية	٤٧٥١	٦٤٧٣	٣٩٦٣	١٥٦٣	١٣٦٨	١٨١١٨

بالنسبة إلى لبنان لا بد من الإشارة إلى ملاحظات مندوب منظمة التغذية والزراعة الدولية في لبنان، في بحثه حول (استراتيجية الإنماء الزراعي في لبنان)[1] وتوزيع الدخل الوطني على الشكل التالي:

١ - لم تجاوز التنمية الزراعية في الأعوام الأخيرة نشاطات سائر قطاعات الاقتصاد الوطني السريعة التزايد وتقدر أسهم الزراعة بحوالي ١٢٪ رغم أن أكثر من ٥٠٪ من السكان يعتمدون عليها للعيش، و٤٥٪ من مجموع الصادرات هي على حساب الإنتاج الزراعي وينتج عن ذلك أن دخل

---

(١) منشورات ندوة الدراسات الإنمائية، عام ١٩٦٩، الإنماء الوطني والإنماء الزراعي. محاضرة «استراتيجية الإنماء الزراعي في لبنان».

المزارع هو أقل بكثير من الفرد ساكن المدينة مما يؤدي إلى حركة هجرة الأراضي الزراعية.

٢ ـ إن دخل حوالي ٣/٤ السكان السنوي لا يتعدى ٥٠٠ ليرة لبنانية، بينما معدل ربع السكان الذين يكسبون جيداً أي حوالي ٤٪ من السكان يعادل ٨٠٠٠ ليرة لبنانية.

٣ ـ يعادل حجم الأرض التي يملكها الفرد بـ ١,٢ هكتار، فالتوزيع هو مناف كلياً للمعدل، إذ أن حوالي ربع المالكين يتمتعون بمساحة فردية لا تتعدى ١,٠ هكتار ويساهم بأقل من واحد بالمئة من مجموع الأراضي الزراعية، بينما الواحد والنصف بالمئة من المالكين الكبار يساهمون بـ ٤٠٪ تقريباً ويملكون مساحة فردية تزيد عن ١٠ هكتار.

وتقديرات قيمة الإنتاج العام في عام ١٩٦٥ تبين وتظهر وضع الدخل الفردي على الشكل التالي:

١ ـ في القطاع الزراعي ٩٣ دولار.

٢ ـ في القطاعات الأخرى ٧٤٣ دولار.[1]

وللمقابلة مع الدول الشقيقة يورد الباحث جدولاً مصدره بعثة ايرفد حول دخل الفرد من السكان من انتاج قطاعه.

	القطاع الزراعي			القطاعات الأخرى		
	تقدير			تقدير		
	١٩٦٢	١٩٦٥	١٩٧٥	١٩٦٢	١٩٦٥	١٩٧٥
لبنان	٨٥	٩٣	١١٦	٧٠٣	٧٤٣	٨٥٨
الأردن	١٠٩	١١١	١٢٧	٢٢٩	٢٤٥	٣٢٦
سوريا	١٢٠	١٦٢	١٨١	٢٣٧	٢٦٩	٣٠٦

(١) «العمران الريفي» حليم نجار منشورات ندوة الدراسات الإنمائية الإنماء الوطني والإنماء الزراعي ـ ١٩٦٩، ص ٣٠٦ ـ ٣٠٧.

ثم يتابع الباحث: «يتضح من هذه الأرقام الفرق الشاسع بين دخل الفرد في القطاعات المختلفة والقطاع الزراعي وهو ما يعطي لبنان وجه التقدم» الذي يخفي وراءه هوة ساحقة من التخلف، ودلالة على التخلف اللبناني الكبير نورد تقديرات رينيه حبشي التي تشير إلى أن ٤٪ من السكان يكسبون ٣١٪ من الدخل القومي بينما يكسب ٥٠٪ من السكان فقط ١٨٪ من ذلك الدخل (مستقاة من بعثة ايرفد).

يتابع الباحث قائلاً: أما في لبنان فهذه الظاهرة تدل على أن التقدم في الدخل الفردي قد أصاب المتفعين من القطاعات الاقتصادية المختلفة (صناعة خدمات... إلخ) بينما حصة المتفعين من القطاع الزراعي على وفرة عددهم تنخفض، وهكذا أصبح الغني أكثر غنى والفقير أشد فقراً.

إن التعامي عن الوضع الراهن وخداع الرخاء الاقتصادي الذي تتمتع به فئة ضئيلة حاكمة وتقبلنا لازدواجية المستوى الاقتصادي... إن هذا الوضع سينفجر يوماً وعندئذ سيدخل لبنان زوال عهد الرخاء الذي اعتبره أزلياً.

إن النظام الاقتصادي المتبع في لبنان والمبني على الحرية المتناهية قد شجع القطاع الخاص، وسير النظام السياسي تحت تأثير (إقطاعيتين) إقطاعية مالية وإقطاعية سياسية تقليدية، ولم تستعمل وارداتها المحددة بالتساوي بين المناطق العامرة اقتصادياً والمتخلفة، فزادت الهوة بين القطاعين. إن اتباع سياسة إقتصادية تقدمية تهدف إلى توزيع الثروة توزيعاً عادلاً، والإفادة من واردات البلاد في تخفيف الفرق بين الفئات والمناطق المتخلفة هو أحد الأصول الرئيسية في التخطيط للإنماء.[1]

بعد عرض تاريخي سريع لواقع المداخيل في الستينات ننتقل إلى واقع

---

(١) المصدر السابق.

المداخيل في السبعينات مع بعض المقارنات المفيدة.

نبدأ بعرض جدول مفصل ومقارن[1] لتوزيع المداخيل على أساس (القطاع) ما بين ١٩٦٤ ـ ١٩٧٠ على الشكل التالي:

توزيع (أنواع المداخيل)	١٩٦٤	١٩٧٠
أجور تعويضات اجتماعية	٢٠,١	٢٢,٨
فوائد أسهم إيجارات	١٦,٢	١٥,٤
دخل خام للمشاريع الزراعية	٨,٩	٦,٧
الدخل الخام للمشاريع الخاصة الأخرى	٢٦,١	٢٦,١
الأرباح الخارجية	١١,٠	١١,٢
الضرائب	١١,٠	١١,٤
مختلف	٦,٢	٦,٤
المجموع	**١٠٠**	**١٠٠**

نلاحظ في الجدول أعلاه تطوراً بسيطاً وضئيلاً في قيمة الأجور العامة خلال فترة ست سنوات.

وكذلك في فرنسا فإن الأجور والتعويضات تعادل نسبة ٧٦,٦٪ والفوائد والإيجارات والربح وأرباح المشاريع تعادل نسبة ٢٣,٤٪ (إحصاءات عام ١٩٧٤).

لقد ذكر أحد الخبراء[2] استناداً الى إحصاء القوى العاملة في لبنان

---

(١) الجداول الإحصائية العامة.

(٢) فرناند سنان «اقتصاد الدول العربية»، ١٩٧٧، ص ٣٢ .

الذي أجري في عام ١٩٧٠، وتوصل إلى نتيجة بأن القوى العاملة وصلت إلى الرقم ٥٣٨,٤١٠ شخصاً. كانت موزعة على الشكل التالي:

القطاعات	٪	توزيع النشاطات الاقتصادية	
زراعة	١٨,٩	عمال مستقلون	٪٢٤,٠
صناعة	١٧,٨	أرباب عمل	٪٧,٦
بناء	٦,٥	أجراء دائمون	٪٣٨,٨
تجارة	١٧,٥	أجراء مياومون	٪٢٢,٠
خدمات	٣١,٢	خدمة في المنازل	٪٦,٦
نقل	٧,١	مختلف	٪٢,٠

* * * * *

إن نسبة العمال الدائمين والمياومين والتي تعادل نسبة ٥٩,٨٪ من الشعب العامل تربح في عام ١٩٧٠ ٢٢,٨٪ فقط من الدخل في دراسة إحصائية، قامت بها مؤسسة أي. بي. سي. (في كانون الأول عام ١٩٧٤ على أساس توزيع أو نسبة توزيع الدخل على الأسرة).

* * * * *

(أ) التوزيع العائلي في لبنان
(جغرافياً) حسب المناطق (أي على أساس المحافظة)

كل لبنان	بيروت	جبل لبنان	لبنان الشمالي	لبنان الجنوبي	البقاع
٥٥٠,٠٠٠ أسرة	٢٢٠,٠٠٠	٧٥,٠٠٠	١١٤,٠٠٠	٧٥,٠٠٠	٦٦,٠٠٠
٪١٠٠	٪٤٠	٪١٣,٦	٪٢٠,٨	٪١٣,٦	٪١٢

(ب) دخل العائلة الشهري[1] ٥٠٠ ـ ١٠٠٠

كل لبنان	أقل من ٥٠٠ ل.ل	١٠٠٠ ل.ل	١٥٠٠ ل.ل	١٥٠٠ـ٢٠٠٠ ل.ل	أكثر من ٢٠٠٠ ل.ل	غير محدود
٥٥٠,٠٠٠ أسرة	١٧٤,٥٠٠	٢٠٩,٠٠٠	٧٣,٥٠٠	٢٢,٠٠٠	٥٥٠٠٠	١٦,٠٠٠
١٠٠٪	٣١,٧٪	٣٨٪	١٣,٣٪	٤٪	١٠٪	٣٪

مؤسسة (أ. ب. سي. للإحصاء عام ١٩٧٤).

* * * * *

وهذا يعني أن حوالي ثلث السكان، تقريباً يعيشون في حالة فقر دائم، ونسبة ٣٨٪ على حافة الفقر.

أقل من ٥٠٠ ل. ل.	٣١,٧٪	من التوزع العائلي في لبنان
من ٥٠٠ ل. ل. ـ ١٠٠٠ ل. ل.	٣٨٪	من التوزع العائلي في لبنان
من ١٠٠٠ ل. ل. ـ ١٥٠٠ ل. ل.	١٣,٣٪	من التوزع العائلي في لبنان
من ١٥٠٠ ل. ل. ـ ٢٠٠٠ ل. ل.	٤٪	من التوزع العائلي في لبنان
أكثر من ٢٠٠٠ ل. ل.	١٠٪	من التوزع العائلي في لبنان
مداخيل مرتفعة وغير محدودة	٣٪	من التوزع العائلي في لبنان

* * * * *

التركيب الاجتماعي الطائفي للمجتمع اللبناني والظروف الاجتماعية التي كانت تعيشها بعض المجموعات اللبنانية تلاقت على أرض من التفاوت والفقر والضياع والرفض.

إن نسبة العاملين في الزراعة كانت تقدر عام ١٩٦٥ بحوالي خمسين بالمئة حسب تقرير المشروع الأخضر...

لقد سجلت نسبة ارتفاع الإنتاج الزراعي عام ١٩٧٣ ارتفاعاً بلغ ١١٪

---

(١) سبق عرض الجداول الاحصائية.

من الدخل القومي علماً بأن الميزان التجاري من المواد الغذائية والزراعية كان يتراوح ما بين ٦٠٠ - ٧٠٠ مليون ل. ل. تقريباً.[١]

إن التفاوت الفادح بين الفئات الأكثر غنى والفئات الأشد فقراً في المجتمع الواحد يساهم في ضعف التماسك الاجتماعي بالإضافة إلى سيطرة الرفض في أوساط الشباب نتيجة تفشي الاحتكارات وتسلط الأقوياء وهذا يقود بدوره إلى عدم التركيز في الانتماء إلى الوطن.

يبدو أن واقع لبنان الاجتماعي والاقتصادي أساء إلى لبنان والمناطق المحرومة ولكن الحرب أساءت أكثر بكثير وفاقت مآسي الحرب اللبنانية جميع المظالم التي كان يعاني منها فريق مهم من اللبنانيين.

لقد قال أحد الخبراء:[٢]

«لقد تميزت الحرب اللبنانية بما يلي:

- طول الفترة الزمنية التي تجاوزت مدة الحرب في أي بلد خلال القرن العشرين.
- وفاة أو إعاقة (٣,٥) بالمئة من السكان.
- تشريد ربع سكان لبنان تقريباً أي ما يزيد عن ٧٥٠ ألف لبناني ولبنانية.
- إنتاج القطاع الزراعي هبط بنسبة ٢٥٪.
- صارت نسبة الشلل في القطاع الصناعي تمثل ٥٠٪.
- انحدرت المستويات العلمية والمواطنية وتدنى مستوى الخدمات التي

---

(١) مروان اسكندر - النهار ٢٣/١/١٩٨٤ .

(١) مروان اسكندر - النهار ٢٣/١/١٩٨٤ .

تعتمد على المستوى العلمي والأخلاقي وصارت مؤهلات جيل اللبنانيين المستقبليين دون طموح أهلهم.

* * * *

يتوقف نجاح التنمية على المشاركة الجماهيرية في جهودها على أساس احترام الإنسان وحق الناس أفراداً وجماعات في تقرير مستقبلهم بحرية. وهناك مبدأ مهم في الحياة الاقتصادية والاجتماعية هو سيطرة مبدأ المصلحة العامة على حساب الأنانية الشخصية في العلاقات الاجتماعية، أي أن أعمال الأفراد تقاس بمبدأ الأعمال التي حققوها والخدمات التي وفروها حسب القواعد العامة المجردة، مستقلة عن الارتباطات الشخصية أو الانتماء إلى فئة اجتماعية معينة.

في لبنان مثلاً نلاحظ وجود خلفية ذهنية اجتماعية وفردية وسياسية وراء الإنتاج المتدني، منها الجهل وقلة الثقافة وعدم التقيد بالمقاييس الأخلاقية وقلة الحماسة نحو البناء والتطور بالإضافة إلى سيطرة الغرائز الطائفية التي تعمي البصر والبصيرة. وفي رأينا بأن التنمية الاقتصادية لا يمكن أن تقطع مراحلها إلا في حالة تشكيل وحدة وطنية متماسكة وبناء عقلية تعطي للشعب الانسجام الضروري للتنمية كما سبق ورأينا من قبل.

«التخلف هو حالة ذهنية تبدأ أساساً بالتخلف العقلي... وهذا التخلف يبدأ في التفكير والمفاهيم التي لا يعنيها كثيراً مبدأ الحرص على المصلحة العامة ومصلحة الأكثرية».

«إن لبنان ينقصه أكثر من الماء والكهرباء والطرقات بل التشكيلات والمجموعة من الرجال المخلصة كلياً للخير العام، وتطبق القاعدة على كافة المستويات لحل المشاكل المتعددة التي تتطلب رفع المستوى البشري اللبناني».[1]

---

(١) رئيس بعثة ايرفد الأب لوبريه.

ثم يتابع في مكان آخر: بأن مفهوم التنمية يستوعب المفاهيم المجردة لكنه تطوير يحوي ضرورة تنمية القوى البشرية التي تعتبر هدف التنمية الاقتصادية والاجتماعية والثقافية أيضاً».

نعود فنقول بأن الإمام قام بمشاريع اجتماعية منها المؤسسة المهنية في صور (برج الشمالي) وذلك قبل تسلم رئاسة المجلس وهي مدرسة مهنية متعددة الاختصاصات.

هناك مشاريع جنوبية تبحث عن حل، منها مشاريع الري واستعمال الوسائل الحديثة في الزراعة والتسليف الزراعي واستخدام التصنيع الزراعي بالإضافة إلى توسيع أعمال المشروع الأخضر واستصلاح الأراضي والعناية بالمناطق المحرومة وهناك مشروع البحيرات الاصطناعية في أقصى الجنوب وتنمية الصناعات الريفية وتعزيز المؤسسات ذات الاختصاص في هذا المجال. لقد شاهدت معرضاً للسجاد العجمي في سد البوشرية بإشراف السيد كان هناك معرض للحياكة الصوفية (للسجاد العجمي) وكانت فتيات صغار في السن يقمن بأعمال الحياكة أمام الجمهور فلاحظت جهداً متواصلاً في إنتاج قطع صغيرة من السجاد الغالي الثمن.

أذكر في عام ١٩٧١ أن الإمام كان يقوم بمحاضرات أسبوعية في القاعة الكبرى للمجلس وكانت المواضيع إسلامية وفكرية عامة كان يناقش مشاكل الإنسان المعاصر والمشاكل الاقتصادية التي يعيشها... بالإضافة إلى طرح أفكار إسلامية واجتهادات حول مسائل حياتية وظروف جديدة يعيشها الإنسان، وعرض في إحدى المحاضرات الواقع الاشتراكي وظروفه التاريخية والسياسية، ثم عرض بمحاضرة كاملة نظرية فائض القيمة بطريقة تفهم أكثر الحاضرين، وفي المحاضرة الثانية قدم نقداً لهذه النظرية استغرق محاضرة كاملة... وفتح باب النقاش للجميع، وكان يرد على جميع الأسئلة دون استثناء وأخيراً التفت إليّ

«وقال: هذه أبحاث اقتصادية... لا يحق لنا التطرق إليها أمام الاختصاصيين»...
قال هذا وضحك وكان ذلك بعد انتهاء المحاضرة طبعاً.

وكان يهتم بدراسات اقتصادية إسلامية قيمة للسيد محمد باقر الصدر وكانت تلك الدراسات من أفضل ما كتب وشرح في الاقتصاد الإسلامي وقد علمت بأنه قدم نسخة من هذه الدراسات للرئيس عبد الناصر.

كان يهتم بقضايا التنمية في لبنان، ومحاضراته في هذا السبيل علمية تعتمد العلم والمنطق ويهتم بالإحصاءات نظراً لأهميتها من ناحية وارتكاز التخطيط على أساسها لتوجيه الطاقات في المستقبل وعلى صعيد التوسع السكاني وهجرة أبناء الريف الزراعي إلى المدينة.

والتخطيط كوسيلة للتنمية الاقتصادية والتقدم الاجتماعي يرتبط ارتباطاً وثيقاً بتنفيذ التجهيزات الأساسية الضرورية لإنماء المناطق كمشاريع الري والكهرباء والأوتوسترادات والطرق والمدارس والمستشفيات والمختبرات الخاصة بالبحوث الزراعية والمدارس المهنية.

وهناك فريق من العلماء يعتقدون بضرورة حسابات التخطيط الآتية:

ـ حساب القوى العاملة في إطار مجموع السكان وهو عنصر أساسي في عنصر الطلب والإنتاج... علماً بأن التقديرات المستقبلية تكون مؤكدة في حالات المدى القصير والمتوسط.

غير أن الحسابات تصبح تقديرية عندما يتجاوز حساب التخطيط مدة عشرين سنة.

ـ مصادر الطاقة والثروة والوسائل التقنية التي تعين الوقت اللازم للاكتشافات العلمية.

ـ الشروط الاقتصادية السياسية في باقي أجزاء العالم.

هذه المبادىء والمفاهيم غير واردة في لبنان... وكذلك أيضاً تطور الاحتياطات المستقبلية على صعيد القدرات البشرية المتخصصة والمهنية الضرورية للتنمية الزراعية والصناعة.

* * * *

كان السيد يضحك من بعض الخرافات البالية المسيطرة على أفكار العامة والتفسيرات الخرافية التي تجافي المنطق والحقيقة، وكان يؤمن بالعقل قوة للتحليل والتركيب كمصدر من مصادر توجيه الإنسان في الحياة العملية ويردد بأن الذهنية المتطورة للقيادات يمكنها من تطوير عملية البناء وتطوير المجتمع.

كان دقيقاً وصائباً في معظم الأحيان في تحليل ذهنية وتفكير وعقلية البشر من سياسيين ومثقفين واقتصاديين وخصوصاً الذين كان يتعامل معهم ويناقشهم ويدرك معهم وكان يعرف اختلاف البشر في عقولهم وفي ميولهم...

أذكر في عام ١٩٦٤ عندما كنت في الوكالة الوطنية للأنباء مكلفاً ببعض التحقيقات الصحفية ومنها تحقيق صحفي عن الندوة اللبنانية وكان لا بد من زيارة مؤسسها وباعث النشاط السياسي والاجتماعي والثقافي في نشاطاتها السيد ميشال الأسمر، وقد زرته في مكتبه وعرضت عليه مهمتي المكلف بها عن الندوة اللبنانية تاريخها، نشاطاتها، الاتجاهات التي تتحكم بها، ثم عن أهم المحاضرين الذين حاضروا في عالم الماضي والحاضر.

سمع الأستاذ ميشال النقاط التي أحتاج إليها في الموضوع، ثم أخذ يتحدث بلهجة هادئة وناعمة ودبلوماسية تخفي وراءها شخصية تتمتع بثقافة واسعة وشاملة في مختلف المواضيع الثقافية والسياسية والتاريخية والاجتماعية والأدبية، ينهل من ضروب المعرفة وأشتات الفكر في حديث متدفق وشائق. هذه الشخصية الفكرية والدبلوماسية كانت من الأعضاء المؤسسين لحركة أمل عندما أعلن الإمام تأسيسها في تموز عام ١٩٧٥، وكان على صلة فكرية

وثقافية دائمة مع الإمام، وكانت الأحاديث والنقاشات الفكرية بينهما تطول في السهرات وفي اللقاءات وفي الاجتماعات التي كانت تجمع بينهما وكان الأستاذ ميشال معجباً ومحباً وصديقاً للإمام.

وعلى الرغم من أنه كان يتجنب السياسة والممارسات السياسية إلا أن إعجابه بشخصية الإمام كان يدفعه إلى تجاوز الحدود التي رسمها لنفسه في حياته الفكرية والسياسية.

أترك لأستاذنا الدكتور ميشال عاصي لكي يحدثنا عن الأستاذ ميشال الأسمر: «كان يعمل بقناعاته وصداقاته الكثيرة المتشعبة وكان مثقفاً، واسع الثقافة لطيف المعشر جذاب الحديث على بساطة في الملبس والمسلك، يتجنب سطوع الأضواء».[1]

«... فأدركت أنه ملم في كل شاردة وواردة فيما يتعلق بالجغرافية الثقافية والفكرية في لبنان وبامتداداتها الفرنسية والأوروبية... يخفي تحت بساطة المظهر إنساناً ذا شأن كبير في الحياة الثقافية اللبنانية وفي مختلف الوجوه وذا كلمة نافذة في سياسة الدولة الفكرية والتربوية وذا نفوذ لدى رجالات الحكم وأسياده وحتى لدى معارضيهم وخصومهم، انطلاقاً من علاقاته بهم وصداقته لهم».[2]

«وكانت نشاطات الندوة حافلة بالمحاضرات من كل نوع وبالحوار الإسلامي المسيحي الذي أولاه اهتماماً خاصاً، كما كان مكتبه ملتقى نخبة من أهل الفكر والرأي».[3]

---

(١) النهار الملحق ١٩٩٣/٨/٧ ـ مذكرات ميشال عاصي.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

كان الإمام دقيقاً في ملاحظاته سريع البديهة لا يترك نقطة إلا ويستوضح عنها طالباً جواباً سريعاً إدارياً وقانونياً... دون الالتفات إلى شيء آخر. كان يسمع الشكاوى ويطلب التدقيق والتحقيق في شكاوى عديدة... كان يعرف من خلال طريقة العمل من يعمل ومن يريد الاعتماد على الكلام المنمق... واستعمال لغة الأدب والفصاحة تهرباً من واقع العمل والمسؤولية... كان لا يتردد في توجيه النصح واللوم لأي مسؤول في المجلس...

أذكر في أوائل السبعينات وخصوصاً عام ١٩٧٠ بأن السيد يهتم باستمرار عمليات الإصلاح الزراعي عبر وسائل تقنية وأشغال المشروع الأخضر، إذ كان يعتبر بأن عملية استصلاح الأراضي البور وشق الطرق الزراعية عملية حيوية في المناطق المحرومة.

كان ينادي بإعادة التوازن بين القطاعات الصناعية والزراعية والخدمات، وكان يهتم ويبحث ويحاضر ويناقش مشاريع الري المطروحة سابقاً كمشروع الليطاني ومشروع البحيرات الاصطناعية في أقصى الجنوب ومشروع القاع الهرمل ومشروع ري سهل بعلبك من مياه رأس العين وري سهل عكار في الشمال.

أذكر في إحدى محاضراته في المجلس بأنه وجه اللوم للدولة في عام ١٩٧٠ لأنها تنوي اختصار المشروع الأخضر وبالتالي اختصار إصلاح أرض جديدة.

لقد ذكر في محاضرته بأنه اتصل برئيس الجمهورية في ذلك الحين وبأركان الدولة بهدف توسيع المشروع الأخضر. لقد كان يردد بأن قطاع

التجارة والخدمات يعتمد على الاحتكار... وأن العدالة الاجتماعية بعيدة عن واقع الأنانية التي تسود الاحتكار علماً بأنه يؤيد نظام الاقتصاد الحر الذي يسود لبنان.

ففي الزراعة يوجد احتياطي بشري في المناطق المتخلفة وجمهرة الفلاحين ينبغي أخذها بعين الاعتبار ولو كانت هي الطبقة البائسة، يضاف إلى ذلك مساعدة هذه الطبقة في الخروج من حلقة الفقر معناه تشكيل سوق داخلية جديدة يتنوع طلبها للسلع بحسب زيادة المداخيل.(١)

اهم إنجازات الإمام الصدر

كان المتسولون في صور في مطلع الستينات حوالي ١١٤ متسولاً، فوجه الإمام إليهم الأطباء المتخصصين للكشف على صحتهم وللتأكد من قدرتهم على العمل، وعمل على تأمين معاش شهري للباقين يتقاضونه من صندوق مخصص للمحتاجين. وأفتى بتحريم الصدقة الفردية، وفي غضون فترة قصيرة اختفى التسول من صور.

وتابع الإمام القائد مسيرته الجهادية فنظم ندوات رمضان المعروفة بالحلقات، فكانت ممنهجة ومدروسة ومكتوبة تعالج زاوية من التاريخ الإسلامي وتطرح مسألة فقهية يجيب عليها بكل وضوح.

جمعية البر والإحسان

ثم التفت الإمام إلى جمعية البر والإحسان مرتكزاً على الأعمال التي

(١) قضايا التنمية في لبنان ـ المؤلف، ص ٤٨ .

قدمتها سابقاً منذ إنشائها على يد العلامة السيد عبد الحسين شرف الدين عام ١٩٤٨، وانطلق سماحته من المنجزات السابقة التي حققتها هذه الجمعية لتطويرها ودفعها نحو تقديم خدمات أشمل وأعمق، وإرساء أسس مؤسسات تقدم الخدمات الجلى للمجتمع ككل وليس لبضعة أناس.

وهكذا حول الإمام الجمعية من جمعية تسد عوز البعض إلى مؤسسة تبني الروح الثقافية والعلمية والإنسانية لتسد حاجات المنطقة وترفع مستواها الاجتماعي.

ومن خلال دراسته المعمقة لأوضاع البيئة وحاجات الشباب ورغبة منه بإدخال التقنية الحديثة إلى ذهنية المواطن العاملي، قرر سماحة الإمام الصدر التوجه إلى تأسيس مدارس ذات الطابع المهني. يحدوه إلى هذا الواقع الاجتماعي القائم.

وفي عام ١٩٦٩ وضع الإمام الصدر حجر الأساس لمؤسسته جبل عامل المهنية في برج الشمالي - قضاء صور وقال: «غرسنا منشآت البر والإحسان في هذه التربة العزيزة وبجوار الأرض المقدسة، لنؤكد بأننا جميعاً على استعداد لبذل إمكاناتنا ساعة تستدعي الحاجة».

وكانت الغاية من تأسيس هذه المدرسة المهنية هي:

أ - الالتزام بتعاليم النبي محمد (ص) تعليم الحرف، وهو التعليم المهني، وهذا هو الدور الأساسي الذي تقوم به المدرسة.

ب - توفير عمال فنيين يتمتعون بالخبرة التقنية والتربية الدينية ليكونوا مثالاً للإنسان الملتزم أخلاقياً وعملياً.

ج - رفع المستوى الاجتماعي عن طريق الأعمال المهنية الحرة بحيث تتنوع القدرات في مواطن المحرومين، فتزداد موارد الرزق من جانب، وترتقي من جانب آخر الذهنية الشعبية بإدارتها بعضاً من أسرار الصناعة.

ولقد استطاعت هذه المدرسة منذ ابتداء الدراسة فيها في عام ١٩٧١

وحتى سنة ١٩٨٢ تخريج ٣٩٠ طالباً يحملون شهادة متوسطة مهنية و١٧ طالباً يحملون شهادة فنية عالية.

بيت الفتاة

لم يكن وضع المرأة بغائب عن الإمام الصدر، فهو يدرك وضعها في مواطن الحرمان، فكان تأسيس «بيت الفتاة» في مدينة صور عام ١٩٦٣، وتفرع عنه مدرسة الخياطة والتفصيل، ومدة الدراسة فيها سنة واحدة واستوعبت في السنة الأولى من تأسيسها ٤٠ فتاة، ثم ارتفع العدد إلى ٨٠ فتاة سنوياً.

وقد امتد مشغل الخياطة أفقياً في حوالي تسعين قرية لبنانية وخرّجت هذه المدرسة منذ تأسيسها حوالي ٨٠٠ فتاة، استطاع بعضهن فتح معاهد خاصة في قراهن وبيوتهن.

مدرسة التمريض

وفي إطار سعيه للعناية بأوضاع المرأة والحرص على رفع مستواها الثقافي والاجتماعي وللحد من موجة البطالة المستشرية في الأوساط النسائية أسس الإمام القائد عام ١٩٦٩ مدرسة التمريض لتخريج مساعدات ممرضة التي أخذت تطبق منهاج مديرية التعليم المهني والتقني، واستحصلت على ترخيص بموجب مرسوم جمهوري سنة ١٩٧٢. وبدأت بتهيئة الطالبات لنيل الشهادة الثانية باختصاص العناية التمريضية، وهذه الشهادة تعطي حاملها الحق بالعمل من جهة كما أنها تدفع بذوات الطموح إلى متابعة التحصيل حتى الحصول على شهادة امتياز فني أو تخصص جامعي.

وكانت الغاية من تأسيس المدرسة هي:

أ ـ توفير فتيات يتمتعن بالالتزام الديني والخلق الإسلامي.

ب ـ تعميم الوعي الصحي في الأوساط الشعبية.

ج ـ اختراق مجالات عمل جديدة ونظيفة مشرفة وذات منفعة عامة للفتيات الملتزمات بالعقيدة والمثل الخلقية العليا.

وقد خرّجت هذه المدرسة، التي كان لها فرعان أحدهما في بيروت والآخر في صور أكثر من ٥٠٠ شخص حملوا شهادة بكالوريا مهنية تمريضية وقد عملت إدارة المدرسة على توفير العمل للخريجين وبقيت على صلة بهم.

معهد الدراسات الاسلامية

أسس الإمام الصدر هذا المعهد في صور لتأمين الخطباء والمرشدين الدينيين وأساتذة تعليم مادة التربية الدينية في المدرسة الرسمية والخاصة.

مستشفى الزهراء

أسس نتيجة للأحداث اللبنانية، وكان عبارة عن مجموعة من الخيام يقوم بخدمات ميدانية متنقلة لإنقاذ الجرحى من ثم أقيم مبنى مؤلف من طبقتين ويضم ٥٦ سريراً.

وقد بدأ العمل الفعلي في مستشفى الزهراء في تموز ١٩٧٨، وخلال الفترة الممتدة من تموز حتى تشرين الأول ١٩٧٨، ثم تنفيذ ٣٤١ عملية جراحية، من استئصال كلى، مرارة، قرحة، شق بطن، ويقوم المستشفى اليوم بدور هام على صعيد معالجة الإصابات الناتجة عن استمرار الحرب الأهلية كما يقوم بتأدية دوره الإنساني ومعالجة المواطنين وإجراء العمليات الجراحية.

مدرسة اللغات

تأسست هذه المدرسة عام ١٩٧٤ وكانت مهمتها تخريج فتيات وأمهات يتقن إحدى اللغتين الأجنبيتين الفرنسية والإنكليزية.

وقد توقف نشاط هذه المدرسة في أعقاب الاجتياح الإسرائيلي للجنوب عام ١٩٧٨.

مدينة الزهراء

هي مبنى مؤلف من ست طبقات، يضم مدرسة التمريض، ومبرة للأيتام، ومعهد خياطة، لم يكتف الإمام بذلك فقد كان طموحه كمؤسس قيادي، إدخال ذهنية جديدة محاولاً توحيد الطاقات، وتنظيم الأعمال الفردية المشتتة.

كما اشترى الإمام ١٧٠ دونماً من الأرض في خراج بلدة الوردانية، على مقربة من صيدا بهدف إنشاء جامعات للعلم والمعرفة.

- وفي اللبوة كذلك اشترى أراضي واسعة للغاية نفسها.

الجمعية الإسلامية للتخصص وصندوق التعليم الجامعي

وهاتان المؤسستان تدخلان في إطار دعم الطلاب المتفوقين وغير القادرين مادياً على متابعة تعليمهم الجامعي.

مجلس الجنوب

يمكن القول بأن القرار الذي اتخذه مجلس النواب عام ١٩٧٠ بإنشاء مجلس الجنوب كان من جراء الضغط الذي مارسه الإمام الصدر على الحكم مدعوماً من قبل الأوساط الشعبية والذي تجلى بالإضراب الوطني الشامل الذي نفذ بنجاح بتاريخ ١٩٧٠/٥/٢٦ وذلك احتجاجاً على الغياب الرسمي الكامل عن دعم الجنوب في مواجهة الهجمة الإسرائيلية الشرسة المتكررة عليه.

مبرة الإمام الخوئي

تأسست هذه المبرة عام ١٩٧٧ بدعم مالي من المرجع الأعلى حجة المسلمين أبو القاسم الخوئي وذلك في إطار العمل لإنقاذ الأطفال الذين شردتهم الحرب وأفقدتهم ذويهم وهي تتكفل بإيواء الأطفال وإكمال تعليمهم الابتدائي.

ومركز هذه المبرة اليوم هو في الدوحة بعدما كان في الأساس في صفير ولها فرع في الهرمل.

مدارس الأيتام

إلى ذلك عمل الإمام الصدر على إنشاء مدارس الأيتام التي تساهم في استيعاب المشاكل الاجتماعية التي أحدثتها الحرب وتخفف من غوائل القتل والتشريد والدمار.

دار الحضانة الاجتماعية

أسس الإمام الصدر هذه الدار في صور وكانت تضم الأطفال بين سن الثالثة حتى السادسة وتقدم لهم الرعاية الاجتماعية والصحية.

إنتاج السجاد العجمي في الجنوب

كانت هذه من جملة التجارب الناجحة التي أقدم عليها الإمام الصدر لمحاربة التردي الاقتصادي والعوز. حيث استقدم خبراء اختصاصيين من إيران إلى الجنوب للتدريب على ممارسة هذه الصناعة الرابحة ولكن الوضع في الجنوب كان من العوامل التي أوقفت هذه الصناعة.

هذه هي بإيجاز المؤسسات التي أرساها الإمام الصدر بنظراته الثاقبة ونشاطه الدائم فانطلق من مسجد الإمام الصادق في صور ليبني صروح

مؤسسات تنقذ الناس من واقع الحرمان وترفع عن رقابهم سيف التسلط والهيمنة من قبل المتحكمين ولينجح بالتالي بعون الله تعالى بهذه الجهود في تحقيق ما كان يصبو إليه دائماً ويعد به.

- كتب الأستاذ الياس الديري المعلق في جريدة النهار بتاريخ ١/٤/١٩٧٥: «للمرة الأولى ربما لا تصبغ حركة رجل دين بطابع طائفي ولا توصم بوصمة التعصب ذلك أن حركة الإمام الشيعي استقطبت حولها وجذبت إليها الاعجاب والتقدير والتعاطف من الموارنة والسنة والأرثوذكس واكتسبت صفة الدفاع عن حق الإنسان في لبنان لا الدفاع عن حق الطائفة أو الطائفي».

- بتاريخ ١٧/٤/١٩٧٥ عقد الإمام اجتماعاً مع البطريرك الماروني خريش تقرر فيه السعي والعمل بالاشتراك مع كافة رؤساء الطوائف لإعادة المحبة والإخاء والتعاون الخالص بين جميع اللبنانيين.

بتاريخ ١٥/٦/١٩٧٥ ألقى الإمام خطاباً ذكر فيه: «أن لبنان هو وطن الجميع لا نرضى بالاعتداء عليه ولا بهدمه وأن وحدة شعبه بمناطقه وطوائفه المتعددة يجب أن ترحم بالعدالة الاجتماعية وبتكافؤ الفرص بين الجميع».

ثم بتاريخ ٢٠/٦/١٩٧٥ كان له لقاء مع رئيس الجمهورية وبتاريخ ٢٢/٦/٧٥ عقد لقائين في دمشق مع سيادة الرئيس السوري حافظ الأسد وعاد إلى لبنان لعقد لقاءات مع قادة الأحزاب والشخصيات السياسية اللبنانية من مختلف الطوائف من أجل الأزمة اللبنانية.

- بتاريخ ٢٧/٦/١٩٧٥ اعتصم الإمام في مسجد الصفا في بيروت صائماً وأعلن: «نعتصم لنفرض على المواطنين الاعتصام عن السلاح الذي

يستعمل ضد اللبنانيين والإخوان... فالسلاح لا يحل الأزمة بل يزيد في تمزيق الوطن».

- كما أعلن الإمام في وقت لاحق: «بأنه يدين الاقتتال ويناشد جميع الفرقاء وقفة نهائية والكف عن استعمال أسلوب العنف الذي لا يخدم أي هدف وطني على الإطلاق».

- بتاريخ ١٩٨٠/٨/٢٨ ذكر الإمام الخميني في مقابلة مع عائلة الإمام الصدر ما يلي: «... أعرف فضائله كما أعرف خدماته وإنجازاته في لبنان وأعرف أن لبنان في حاجة إليه».

(أسأل الله تعالى أن يسعدنا بعودته ليستمر في جهاده ويرزق عائلته وإخوانه الصبر على فراقه. إلى أن يعود إلى ساحة جهاده).

في شهر آذار عام ١٩٩٤ اجتمعت الهيئة الشرعية والهيئة التنفيذية وانتخبت بالإجماع سماحة العلامة المجتهد الشيخ محمد مهدي شمس الدين رئيساً للمجلس الإسلامي الشيعي الأعلى في لبنان.

* * * *

سألت الأمام مرة عن رأيه بحسن سير العمل والوضع الإداري العام فاجاب: «أنا لا أريد بحث الأشياء الوظيفية لأنها من الآن ماشية، بل أقول لك عندما تعثر على وردة جميلة عليك أن تشمها وتحتفظ بها على أساس أنها وردة، وقل لنا بأنها وردة ولو كانت خارجة عن العمل والدوام...».

مشاهد وأدوار حقيقية رأيتها وسمعتها وكأنها مشاهد حية تمر أمامي... في مخيلتي صور وكلام مطبوع ومحفور في الذاكرة التي منها أستمد الذكريات التي تدنيها حلاوة الذكرى وتقصيها مرارة الأيام التي نعاني منها في ظروفنا الحاضرة...

أذكر حكاية رواتب موظفي القطاع الخاص في المجلس فهؤلاء

يتبعون قانون المجلس ورواتبهم من المجلس، في حين أن موظفي القطاع العام في الدولة يطبق عليهم المرسوم الاشتراعي ١١٢ وفي عام ١٩٨٠ وما بعده أدخل فريق من القطاع الخاص في القطاع العام بعد عمل الإجراءات القانونية المنصوص عليها في قانون تعيين موظفي الدولة...

خلاصة الحكاية بأن الزيادات السنوية في الرواتب في القطاعين الخاص والعام كانت تدفع موظفي القطاع الخاص في المجلس للمطالبة بالزيادة، كانت لجنة التنظيم والإدارة برئاسة السيد وكانت تبحث الموضوع ولكن المشكلة تبقى في عدم توفر المال اللازم... لكن الموظفين لا يقتنعون بهذا الكلام فهم دائماً مصرون على الحصول على الزيادة المقررة.

ثم أشير إلى الصلات الطيبة التي كانت تتمتع بها العشائر في مناطق بعلبك والهرمل مع المجلس وخصوصاً الصلات الخاصة مع السيد... عند حضور السيد، من إحدى أسفاره إلى الخارج كان شيوخ العشائر المعروفة: آل دندش وآل جعفر وآل شريف وغيرهم العديد من العائلات الكبيرة كآل المصري وآل الموسوي وهم جميعاً من مؤيدي السيد.

هناك مستخدم آخر في الملاك الخاص ينتمي بصلة إلى أحد زعماء البقاع، وكان قد تجاوز الستين من عمره كان يرتدي الطربوش المنحني والبذلة السوداء المقلمة، حتى لتخاله بأنه من باشوات مصر القدامى، أو بعض الزعماء والوجهاء في الثلاثينات. كان رجلاً يحب «الوجاهة» وقد مارسها من قبل في بلدته، ولكن الدهر جار عليه وأصبح بحاجة إلى المال لكي يعيش لقد كان طيب القلب، كريماً لا يكذب وكنت كلما سألته عن شيء يجيب بصراحة تامة.

لقد لاحظت بأن هناك جهة ما في المجلس، ترغب بالتخلص من الحاج وإحلال مستخدم آخر مكانه.. جاءني إلى المكتب وقال لي: أنا فقير ولا يمكنني عمل أي شيء في هذه الحياة بعد أن تجاوزت الستين من عمري أرجوك أن تحل مشكلتي... هناك من يريد طردي من هذه المؤسسة فما كان مني إلا أن اتصلت بالسيد وقلت له بأن الحاج مخلص في عمله ضمن حدود إمكاناته.

فأجابني السيد: «وهو كذلك». وهكذا بعثت الطمأنينة والراحة في نفس الحاج التي كانت مضطربة.

هذه نبذات صغيرة عن أحداث رأيتها بعيني أسجلها دون ملاحظات شخصية فهي وقائع تمت ملاحظتها بالمشاهدة الحسية.

الفصل السادس

ملاحظات عامة
حول القضايا الاجتماعية

ملاحظات عامة حول القضايا الاجتماعية

وفي رأينا أن التخلف هو حالة ذهنية تبدأ أساساً بالتخلف الذهني الذي يعالج الأمور في البلدان المتخلفة. هذا التخلف يبدأ في التفكير السياسي المتخلف الذي لا يعنيه كثيراً مبدأ الحرص على المصلحة العامة ومصلحة الأكثرية الساحقة من أبناء الوطن وعدم الإيمان بالتخطيط العلمي الذي يتحدد على الصعيد الاقتصادي بمجموعة الخطط والبرامج للاستثمارات كوسيلة لتوجيه التنمية الاقتصادية والتقدم الاجتماعي. بالإضافة إلى تحول السياسة من علم يعمد في بعض الدول المتطورة خدمة المواطن إلى فن الخداع الذي يعني الأحابيل والألاعيب المبتكرة على حساب حياة وكرامة المواطن... ذلك أن المخطط الاقتصادي في معظم البلدان المتطورة هو مسؤول أمام المخطط السياسي الذي يؤمن بالعلم والمعرفة والتخطيط ومصلحة الأكثرية من المواطنين، إذ لا وجود للمخطط الاقتصادي أو الاجتماعي في بلد متخلف لا تؤمن الفئة الحاكمة فيه بدور العلم والتخطيط في تنمية البلد من الناحية الاقتصادية والاجتماعية...

لقد كانت أكثر الإضرابات والمظاهرات المستمرة للطلاب قبل الحرب تطالب بتوسيع وتعزيز الجامعة الرسمية للدولة وإنشاء فروع تطبيقية للطلاب

كالهندسة والزراعة التي صدر مرسومها في عام ١٩٧٤ خوفاً على مستقبلهم الاقتصادي والتعرض لخطر التشرد والحرمان.

مع الاعتراف بوجود دوافع سياسية في بعض الحالات للإضرابات المستمرة إلا أنها في حقيقتها تخفي ظروفاً اقتصادية يعاني منها الطلاب في التعليم النظري للطلاب والأمل الضعيف بتحسين مستواهم الاقتصادي والاجتماعي بعد التخرج، والظروف الحياتية التي يعيشها الطلاب وفرص العمل المحدودة أمامهم في مرحلة الدراسة الجامعية وفي مرحلة التخرج، وقد يختلف الأمر تماماً في الجامعة الأميركية، حيث الطلاب يعيشون في ظروف اقتصادية أفضل، بالإضافة إلى الفروع التطبيقية كالهندسة والطب والزراعة مع كافة الاختصاصات العلمية الحديثة وجميع ما تحتاجه الجامعة لتلبية طموح الطلاب... وهم يعلمون سلفاً أن عملهم بعد التخرج ليس بمشكلة وأن أصحاب المهن الحرة كالطب والهندسة أمامهم المجال الواسع لممارسة الطب والهندسة مثلاً وبقية الاختصاصات لها الأولوية في الشركات الأجنبية والشركات الخاصة اللبنانية والبلاد العربية.

إن ظروف الحرمان والفقر التي كان يعانيها الطلاب قبل الحرب، والقلق على مستقبلهم بالإضافة إلى الظروف العائلية والاجتماعية التي كان يعاني منها الطلاب في المناطق الزراعية... هذه الأسباب مضافاً إليها بعض الدوافع السياسية كانت تتفجر عنفاً في المظاهرات والإضرابات المستمرة فالقلق والحرمان يولد الشغب سبب الخضات والهزات الاجتماعية في معظم بلاد العالم.

نعود إلى الطبقة العاملة اللبنانية التي تتلخص، في جوهر المطالب قبل الحرب، حول زيادة تقديمات الضمان بالإضافة إلى الحد من البطالة، الزيادة في الأسعار ومحاربة التضخم وتعديل سلم الأجور وتشجيع التعاونيات

الاستهلاكية، والانتاجية لدعم الإنتاج ومحاربة الغلاء وتقديم منح إسكان للعمال وزيادة فاعلية الخدمات الاجتماعية وتحديثها كالخدمات الصحية مثلاً...

هذا ملخص لجوهر المطالب العمالية التي تهدف إلى رفع مستوى العامل وتقديم الخدمات الاجتماعية له ولعائلته ولتخفيف العبء الاقتصادي الذي تنوء بحمله أكثرية الطبقة العاملة، كانت وسيلة العمال الإضراب والتظاهر لتحقيق المطالب العمالية التي تحيط بمجالس إدارة المؤسسات ويمكن أن نضعها في أية لحظة أمام أي خطأ يحصل بالنسبة لصالح الشعب.

وللمقارنة تساهم الضريبة على الدخل في دعم النظام الاجتماعي في كل من السويد وإنكلترا وسويسرا الذي يبلغ معدل الإنفاق في كل منها كما يلي: ٤٣,٦٪ في إنكلترا و٢١,٨٪ في سويسرا.

في عام ١٩٧١ لدى مباشرة صندوق الضمان الاجتماعي في تطبيق فرع المرضى والأمومة تبين أن سبعين بالمئة من أفراد الطبقة العاملة لا تتجاوز الحد الأدنى للأجور، هناك عمال يقضون في عملهم ٣٠ سنة ولا تتجاوز أجورهم ٥٠٠ ل. ل. في حين أن مستخدم آخر في مؤسسة نفسها يبلغ أجره ٦ إلى ٨ أضعاف العامل الأول.

وقد أثارت تقديرات الاتحاد العمالي قبل الحرب أن ١٥٠ ألف مضمون يحرمون من أي تقديمات بسبب عدم تصريح مؤسساتهم عنهم بالإضافة إلى كونهم مهددين بالتسريح الكيفي نظراً لأن المادة ٥٠ من قانون العمل تعطي حق التسريح الكيفي لرب العمل.

دعا الاتحاد العمالي العام إلى إضراب عام في ٢ نيسان ١٩٧٤ لزيادة الأجور بنسبة ١٠ بالمئة ورفع الحد الأدنى إلى ٢٧٥ ل. ل. أي بزيادة ٥٠ ل. ل. عن الحد الأدنى السابق ووضعت الحكومة في ذلك الحين مشروعاً بتعديل المادة ٥٠ من قانون العمل المتعلق بالصرف الكيفي.

لقد عاد الاتحاد العام وهدد أكثر من مرة بالإضراب وذلك بسبب المماطلة في إحالة مشروع تعديل المادة ٥٠ من قانون العمل والمرسوم المتعلق بالتمثيل التجاري على المجلس النيابي... بالرغم من الأخذ والرد فإن تعديل المادة ٥٠ بقيت مكانها...

فالزيادات التي كان يحصل عليها العمال قبل الحرب كانت تمتصها موجات الغلاء بحيث تسابق زيادات الأجور. ففي بعض الدول المتطورة يسمح للدولة أن تراقب جميع عمليات الإنتاج وتحديد الأسعار المناسبة للمواطن بالإضافة إلى الجودة والخدمات ذات التعرفة المخفضة. ففي بريطانيا تدار القطاعات الأساسية العامة بواسطة أشخاص يملكون كفاءات عالية في حقل الاختصاص الصناعي والتجاري والمالي بالإضافة إلى ذلك فهناك شبكة من اللجان الاستشارية تمثل المستهلكين.

في دراسة إحصائية قامت بها مؤسسة أ. ب. سي. للإحصاء في كانون الأول ١٩٧٤ على أساس توزيع أو نسبة توزيع الدخل على الأسرة، نستنتج أن حوالي ثلث السكان يعيشون تقريباً في حالة فقر دائم ونسبة ٣٨٪ على حافة الفقر وأن فئة متوسطي الدخل محصورة ١٧,٣٪ تبقى الطبقة المترفة وهي تعادل نسبة ١٠٪ من سكان لبنان في حين أن الذين يملكون مداخيل غير محدودة نسبتهم ٣٪ (وقد فصلنا ذلك سابقاً).

لقد وقع المثقفون بالإضافة إلى العمال والفلاحين في دوامة البطالة المزمنة وفي ظروف معيشية صعبة.

وفي رأينا أن الأنانية والانتهازية التي كانت تسود قطاع الخدمات والثقة المفقودة بين المواطن والدولة جعلت الفكر الاقتصادي اللبناني يتسم بالأنانية لزيادة الربح. فأصبح لبنان عاجزاً عن القيام بمتطلبات الإنماء وحل التباين الواسع بين الأفراد والمناطق وذلك على صعيد المداخيل والفروقات الاقتصادية والاجتماعية.

ولا يسعنا إلا الاعتراف بأن الروح العشائرية قلما تهتم بتحقيق نمو اقتصادي متوازن يشمل قطاعي الزراعة والصناعة وكذلك تحديث قطاع الخدمات الذي يعني دخول الفكر الصناعي والزراعي المتطور عالم التخطيط العلمي. هذا التخطيط يعنى باتجاه التنمية وتوزيع زيادة الإنتاج على الجميع وبزيادة المداخيل بنسبة زيادة الإنتاج. بالنتيجة المتناقضات التي تخلقها الروح العشائرية لا بد وأنها تترك النقمة والتسيب والضياع لدى معظم المتعلمين وأبناء الطبقة العاملة.

وهذا يؤدي إلى غياب الشعور والتحسس بالمشاكل العامة وعدم تركز الانتماء إلى الوطن.

كما أن ذلك يؤدي إلى ضعف تماسك الفئات الأكثر غنى والفئات الأكثر فقراً في المجتمع الواحد يضاف إلى ذلك سيطرة الرفض في أوساط الشباب وتفشي الاحتكارات وتسلط الأقوياء وفقدان الأمل بالأحسن...

العقلية التجارية التي تعني في عالم التجارة المرونة والخبرة والبراعة في عمليات البيع والشراء انتقلت من عالم التجارة إلى ميادين أخرى فأصبحت المساومة والشطارة في التعامل محور الشخصية اللبنانية مضافاً إليها التزييف والخداع الذي يأخذ مكانه على العرش في حين بقي الإخلاص والضمير والمحبة مجرد نظريات تدرس في المدارس.

قال العالم البريطاني غليسينّ «بأن المجتمع اللبناني فريد من نوعه بين مجتمعات العالم، لقد حول المال إلى العنصر المتحكم في الحياة».

نعتقد في بعض الأحيان بأن اللهفة اللامتناهية لاقتناص المال، وتجميع الثروة كانت أحد الأسباب للقيام بالعنف على الغير بغية الحصول على المال إما عن طريق السلاح أو عن طريق التهريب أو فرض خوة، ولا ننسى أن التركيب

الاجتماعي الطائفي للمجتمع اللبناني كان وما زال له تأثير كبير على نفسية الفرد والمجتمع وهذا أمر معروف لدى الجميع.

كذلك في مؤتمر التوطين البشري للأمم المتحدة، يتوقف نجاح التنمية على المشاركة الجماهيرية الفعالة في جهودها على أساس احترام الإنسان وحق الناس أفراداً وجماعات في تقرير مستقبلهم بحرية.

هذه الأفكار تؤكد أهمية المتطلبات الإنسانية للتطور الاقتصادي والاجتماعي، وضرورة توفر الذهنية التي تؤمن بمفاهيم العدالة والنظرة الموضوعية لتحقيق نموذج اقتصادي متطور، أما في حال العقلية العشائرية أو الفردية فلا يمكننا أن نرى وجود مؤسسات اقتصادية متطورة لأن انتشار العقلية العشائرية في النظم الاقتصادية هو عمل مخرب على صعيد الأفراد والجماعات ولا يمكن أن تقبل به البلدان المتقدمة التي تمتلك مؤسسات اقتصادية واجتماعية عريقة.

لقد أورد البروفسور (فرنادو) أستاذ التنمية في جامعة باريس في كتابه «نظرية التنمية الاقتصادية»[1] ما يلي:

«تبدو الإصلاحات في أكثر الدول النامية كتخلي السلطة عن بعض مواقعها وليست كنظرة عقلية من هنا تتجاوز مرحلة السياسة الاقتصادية للدخول في استراتيجية تحديث التركيبات الموجودة...».

إن واقع الحرب اللبنانية يكشف لنا عن واقع العقلية اللبنانية والتركيب الذهني للفرد والجماعة في صراعهما مع قوى النفس المتعددة والطريقة التي يواجهون بها الحياة ومشاكلها، إن الحرب في رأينا هي منعطف خطير في حياة الشعوب تدلنا على أنواع التأثيرات الذهنية للفرد والمجتمع والقادة.

---

(١) «نظرية التنمية الاقتصادية»، ص ٢ ـ ٣ .

بوجه عام النتائج الخطيرة للحرب اللبنانية التي أثرت على طريقة التفكير اللبناني وطمست روح العبقرية والتجديد في المفاهيم اللبنانية الحديثة فأصبحت العقلية اللبنانية أسيرة تيارات تتجاذبها وتجذبها من الحقيقة إلى مآسي الكذب والبهرجة والنفاق والظلمة، وكثر المصابون روحياً وأخلاقياً، والجهل الديني والحقد في النفوس الذي تركته لنا مظالم الحرب والتفكك بين العائلات حيث أصبح تفكير الإنسان ممزقاً بين واجباته نحو أهله ومجتمعه ووطنه وبين واجباته لله...

اللبناني الذي يعرف بأنه عاطفي كان ينقصه الخبرة والإمكانات خصوصاً التحليل العقلي الذي أساسه قوة التحليل والتركيب.

فالإنسان والبشر جميعاً هم أبناء إله واحد ووطن واحد ومدينة واحدة وقرية واحدة يفترض في الجميع أن يعيش حياة وادعة هادئة أساسها المحبة والاحترام والعدالة والمساواة. إننا بحاجة إلى نوع من اليقظة الروحية والخلوة لله والإصغاء إلى صوت الضمير بمحبة وروحية جديدة تدخل السلام والسكينة والحب والمعرفة إلى قلب اللبناني.

إن تحقيق سياسة إنمائية واجتماعية، أقلها ترسيخ الفلاح في أرضه، وتأمين الغذاء، والعمل لفريق من اللبنانيين، والمشاركة الإنمائية التي تعتمدها التقنية الحديثة يمكنها أن تساهم في تحرير مئات الألوف من سكان المناطق الريفية من الفقر والجهل والمرض. فالري في مفهوم التنمية يحول الأراضي إلى جنائن ومروج خضراء ويرفع مستوى الفلاح الاقتصادي ويزيد الإنتاج السنوي ويساهم في رفع قيمة الأرض المروية ويحول الريف من منطقة فقيرة إلى منطقة غنية تساهم في دعم الوطن اقتصادياً واجتماعياً.

كما سبق وذكرنا فالعقلية السياسية الواعية والمتطورة والتي تؤمن بالعلم والمعرفة والتخطيط كنظرة مستقبلية إلى تطوير البلد هي أساس التنمية في عصرنا الحاضر.

نلاحظ في سويسرا أو السويد اللتين حققتا نموذجاً اقتصادياً متطوراً بنسبة توسع ديمغرافي محدود، بأن الدول النامية في حالة التوسع الديمغرافي السريع تستوعب ثمرات التنمية التي تعجز عن دفع الاستثمارات ورأس المال اللازم لكسر الحلقة المفرغة للعنصر فعندما يكون التوسع الديمغرافي بمعدل ٢٪ يستوجب حلاً بزيادة استثمارات تعادل ١٠ إلى ١٢ بالمئة وأحياناً ١٦٪ لزيادة الإنتاج وتجاوز حلقة التخلف والفقر.

وقد لوحظ بأن البلدان النامية التي اختارت الصناعة كمرتكز لاقتصادها تعيش في تفاوت اجتماعي بالنسبة للدول الغربية فهي تحاول التقليد في مجالات الصناعة باستيراد المصانع الجاهزة والخبراء، في حين أنها تعاني من تفاوت في المداخيل. في عام ١٩٦٩ - ١٩٧٥ ازدادت الأجور المرتفعة بنسبة ٦٣٪ وإن التفاوت في العائلات بين ١٠٪ الأكثر ثراء و١٠٪ الأكثر فقراً هو ٤٣ مرة في البرازيل و٢٠,٧ في فرنسا و١٢,٤ في ألمانيا الغربية.

أما بالنسبة للمداخيل في الدول النامية والفروقات الواسعة بين أفراد الوطن الواحد، لا يقتطعان من التمويل بل على العكس يدعمانه ويقويانه، ذكر نائب رئيس البنك الدولي: «أن العدالة لا تمنع إعادة توزيع الدخل الاقتصادي وفي القدر الأدنى لا تعرقل إعادة توزيع الدخل الاقتصادي».

وهنا لا بد من كلمة عن مشكلة التبغ وخصوصاً في منطقة جبل عامل في الجنوب اللبناني فهي مشكلة مزمنة تتكرر في كل عام ما بين سخط المزارعين وتخبطهم في الديون المرهقة والأسعار التي لا تتناسب مع ارتفاع التكلفة السنوية كالفلاحة وثمن الشتل والزراعة والقطاف والشك والرزمة. يضاف إلى ذلك بدل إيجار الأرض بحيث لا يمكن المزارع والفلاح العامل مدة اثني عشر شهراً للحصول على مردود سنوي يتراوح ما بين ٧٠ - ١٢٠ ل. ل. سنوياً وفي حال عدم وجود إيجاد الضمان لا تزيد النسبة عن ٣٠٠ ليرة سنوياً (تقديرات عام ١٩٧٤).

يضاف إلى ذلك بأن توزيع الرخص والمساحات على المزارعين لا تخلو من ظاهرة التسييس والتنفيع وهذه مشكلة ثانية تثير نقمة وسخط الفلاح الصغير الذي لا يقوى على أرباب النفوذ للحصول على الرخص والمساحات اللازمة لزراعة أرضه ثم تأتي مشكلة التسليم ولجان الاستلام المختصة بإدارة الريجي وما يرافقه ذلك من عمليات إجحاف وقهر للمزارع الصغير، وكانت هذه العوامل الاقتصادية تثير عوامل نفسية عميقة في قلب المزارع والفلاح الجنوبي كالشعور بالخيبة والشعور بالمرارة والظلم والحرمان.

كان الإمام يعتبر أن مشكلة التبغ قضية عامة ومهمة وكان يراجع في عام ١٩٦٩ وفي منتصف عام ١٩٧٠ رئيس الجمهورية آنذاك الرئيس شارل حلو ومن بعده كبار المسؤولين في الدولة آنذاك أذكر أن الدولة كلفت لجنة الجيش في تقديم تقرير دقيق عن واقع زراعة التبغ الاقتصادي والاجتماعي، وقد أنجزت اللجنة المذكورة تقريراً مفصلاً عن زراعة التبغ.

---

(١) الجزء الأول ص ٣٣٨ (تقرير البعثة).

الفصل السابع

الآثار الفكرية

الآثار الفكرية

إن من يقرأ الآثار الفكرية للإمام وخصوصاً الفكر الإسلامي والأبحاث والمحاضرات الاجتماعية والاقتصادية والتاريخية يلاحظ عالماً مميزاً وأفكاراً مؤلفة من تصورات صادقة ومهمة ساعدت في خلق تيار خاص على الصعيد اللبناني اخترق الذهنية اللبنانية خلال وقت محدود. هذه الإطلالات الفكرية الغنية في الشكل والمضمون، تنزع في الوقت نفسه إلى التجديد وتجمع الحكمة والخيال والموهبة.

يضاف إلى ذلك أن الآثار الفكرية للإمام تأخذ الخط الموضوعي الهادي وتنطلق من أساسات فكرية إسلامية واجتماعية إصلاحية دون الاهتمام بمسايرة الناس أو الدولة على حساب الحقيقة، كان يستبعد في محاضراته التزلف إلى السلطان أو الدولة أو المؤسسات ذات النفوذ. كان يحدد الاتجاه الأول والأخير نحو الحقيقة.

الآثار الفكرية للإمام تهتم بالتركيز على الخط الفكري المتماسك القائم على أساس الإصلاح الاجتماعي والتسامح والمحبة وأن جوهر الأديان واحد تعني خدمة الإنسان ومحبة الإنسان ومقاومة التعصب والتزمت والانغلاق والتحجر...

إن فهم مضمون فكر الإمام يتطلب تجرداً وموضوعية ونفحة إنسانية، وإن التحليل الموضوعي ضروري لرؤية تكامل الفكر الإسلامي والإنساني لدى الإمام، ولا يمكننا استيعاب وفهم المنطلقات الفكرية دون النظر إلى جوهر الأفكار الإنسانية التي انطلق بها الإمام من مدينة صور.

يلاحظ في المحاضرات المنشورة في هذا الفصل وهي بعنوان: الإسلام وكرامة الإنسان، والإسلام وثقافة القرن العشرين، ثم لماذا تأخر المسلمون عن ركب التقدم العلمي والمادي؟.

ومحاضرة الإمام بعنوان: الوفاق الوطني، ثم محاضرة: المرأة في التاريخ ثم محاضرة: الإنسانية مقاس تقدم المجتمع، ومحاضرة: السلام لقاء محتوم بين الإسلام والمسيحية.

يلاحظ في هذه المحاضرات التجديد في العديد من الميادين وعبر المسيرة الحضارية، بالإضافة إلى البعد الديني الأكثر تقدماً الثائر على التقليد وعلى الجمود والتخلف، والاستسلام وعلى التعصب والتزمت، والتخلف الذهني.

وهناك البعد الإنساني في المحاضرات بشكل عام، إذ أن الإمام يدعو إلى المساواة والإخاء والمحبة والسلام بين البشر بالإضافة إلى الثقافة والتطور والاطلاع العلمي وحيازة ضروب المعرفة والفكر وطريقة التفكير الإنسانية والمفاهيم الحياتية الإنسانية والأصالة في الحضارة والتعمق في الفكر الإنساني.

كما أن التنمية ليست مجرد أرقام تنشر في التقارير أو ازدهار اقتصادي تتمتع به فئة من رجال المال، وقد أشار الإمام في أكثر من محاضرة إلى تنمية العقلية الاجتماعية والسلوك الاجتماعي بحيث تسيطر مبادىء الحق والعدالة وتكافؤ الفرص بين أبناء البشر كافة، وتسود النظرة الموضوعية لتحليل الأمور

التي تتفرع من الوجدان والضمير المهني الضروري جداً لعملية البناء الإنمائي.

كان ينظر إلى لبنان وطن الإنسان وليس وطن الطوائف، وكان دائماً يستمع بانتباه إلى صوت الإنسان اللبناني في جميع أرجاء لبنان وإن كان غير مسموع في بعض الأحيان، أما البعد الوطني في محاضرات الإمام فهو مبثوث في تضاعيف الكتاب.

كان الإمام في خطبه ومحاضراته ودراساته يعتبر الإنسان قيمة لا تعلو فوقها قيمة، كما أنه لا يمكن للإنسان أن يكون ثمن نتيجة المعادلات الاقتصادية.

كان يربط الحرية بالوعي ولولا الوعي لما كان هناك حرية، فالحرية هي التي تحدد الخطوط والمعاني في داخل الذات البشرية، والحرية المرتبطة بالوعي هي الحرية الإنسانية الأصلية، فالوعي هو عنوان الإنسان وهو الميزة ولا يمكن فهم حدود وأصالة الحرية دون الارتباط بدرجات الوعي المتفوقة.

إن العلوم الحديثة والتكنولوجيا لا يمكن أن تكون في خدمة البشرية وفي خدمة الإنسان لأنه لا يمكننا فهم التطور الحاصل في عالم التكنولوجيا والعلوم الحديثة دون النظر إلى الخدمات المهمة في عالم الإنسان من الناحية الصحية، أو الاجتماعية والعلمية، المهم فيها أن الهدف منها هو في خدمة الإنسان، بل جميع النتائج والفوائد العلمية النظرية والعلمية يجب أن تتجه نحو خدمة الإنسان وليس لمجموعات محدودة ولطبقات أو عناصر أو شركات مهما بلغت قوتها وأهميتها...

أما ميادين الثورة والتغيير كما لخصها أحد الباحثين الإسلاميين بقوله: «ميادين الثورة في العديد من الميادين وعبر المسيرة الحضارية إذا نحن بحثنا عن التغيير الشامل والجذري الذي ينتقل بالإنسان إلى طور جديد أكثر تقدماً، في الاجتهاد ثورة على التقليد، وفي الجهاد ثورة على الاستسلام، وفي التجديد

ثورة على الجمود، وفي الإبداع ثورة على المحاكاة، وفي التقدم ثورة على الرجعية والاستبداد، وفي العقلانية ثورة على ظاهرية وحرفية النصوص».

كان الإمام متعمقاً في الشؤون الاقتصادية والاجتماعية الحديثة، وكانت العديد من محاضراته تهتم بالشؤون الاقتصادية العامة والنظريات الليبرالية والاشتراكية، وقد خصص أكثر من محاضرتين لدراسة فائض القيمة عند ماركس وفي المراحل التالية تحليل لأهم النظريات التي نقدت هذه المفاهيم الاقتصادية.

كان يهتم بالإحصاءات ويشرف عليها على سبيل المثال: إن زراعة التبغ قبل الحرب كانت ترتبط بها حياة ٢٢٩ ألف شخص ومعدل الزرع في لبنان هو ١,٨ دونماً ومعدل الزرع في العالم ٨ - ١٢ دونماً. كان يعتقد بأن الإصلاح الاقتصادي والاجتماعي في لبنان هو نتيجة ضغوطات سياسية وشعبية واسعة دون أن يكون وليد نظرة عقلية إصلاحية تفرض إصلاحات في الهيكل الاجتماعي وتحديثاً في الهيكل الاقتصادي. وتوزيع المداخيل وخدمات التنمية الأساسية مثل المشروع الأخضر والزراعة والصحة والتعليم.

كان يعتبر ضرورة استيعاب أولويات العلوم العصرية والتكنولوجيا التطبيقية وظروف التهيئة في التنمية الزراعية الحديثة وفي التصنيع الزراعي...

وكان يعتقد بأن الدول التي تشتري مصانع حديثة وأجهزة وتجهيزات هي خطوة غير سليمة إذا لم تستطع أن تخلق العقلية التي تستوعب التكنولوجيا الحديثة.

كما أنه كان يعتقد بأن بناء العقلية الوطنية والوحدة الوطنية المبنية على التكافؤ والتفاهم والانسجام يمكن أن تعطي دفعاً وحماساً لدعم مراحل التنمية. كذلك في سيطرة مبدأ المصلحة العامة على حساب الأنانية الشخصية في

العلاقات الاجتماعية وضرورة الاهتمام بطاقات الفرد والاستفادة منها...

ويدرك أهمية الجهاز الإداري والكادرات الفنية المتطورة التي تعود إلى البحث في العقلية السياسية التي تسيطر على هذا الجهاز في عملية الإنماء، فالعقلية السياسية الواعية التي تؤمن بالمعرفة والتخطيط كنظرة مستقبلية هي أساس التنمية. ويعتقد بأن القيادة السياسية المخلصة تستطيع أن تفرض أفكارها المتطورة على الأجهزة والكادرات المنفذة للمشاريع العامة وعلى المشرفين على تنفيذ هذه المشاريع، وتشجيع الاختصاصات في تسلم مهامها المحدودة وتبعد العناصر الطفيلية التي تحتاش من الفساد المتفشي داخل الأجهزة، ومن خلال النظرة المستقبلية يمكن للقيادة أن تفرض سياسة ضريبية عادلة على المداخيل بحيث تزيد الأموال اللازمة للاستثمارات.

* * * *

أهم المشاريع التي كان يهتم بها الإمام بالإضافة إلى مشروع الليطاني ومشروع البحيرات الاصطناعية في أقصى الجنوب نذكر ما يلي:

١ ـ مشروع ري سهل البقاع والهرمل بمياه العاصي هذا المشروع يهدف إلى جر المياه من النهر المذكور بواسطة نفقين: الأول ـ تستعمل مياهه لتوليد الكهرباء وري (٢٠٠٠) هكتار من المساحات الجديدة.

والثاني ـ يسير باتجاه سهل البقاع ليروي مساحة (٤٠٠٠) هكتار. وعدم تنفيذ هذا المشروع يؤدي إلى خسارة ري ستة آلاف هكتار سنوياً في أراضي البقاع والهرمل التي تحتاج إلى المياه لإحياء الأراضي البعلية.

٢ ـ مشروع ري البقاع الجنوبي وهو ينطلق من توسيع عشرة آلاف هكتار من الأراضي المروية جنوبي خط بيروت ـ دمشق أي (٣٠٠٠) هكتار تقريباً وذلك باستعمال نسبة ٣٠ مليون متر مكعب كما تشير الدراسات الموضوعة من سد القرعون بواسطة الضخ وبنسبة من المياه الجوفية ثم نسبة مياه الينابيع وذلك لتوسيع الأراضي في المنطقة.

أما بالنسبة إلى سهل عكار فهناك دراسات تفيد بأنه من الممكن ري ١٩ ألف هكتار في الشمال في حال تنفيذ مشروع استعمال المياه الجوفية منها عشرة آلاف هكتار في عكار، ذلك لأن سهل عكار سهل واسع وخصب ومن الممكن أن يحتل مرتبة زراعية خصبة في حال اكتمال مشاريع الري.

لقد كرس الإمام معظم المشاريع الحيوية في الجنوب والبقاع وعكار في المطالب الأساسية التي تقدم إلى الدولة في عام ١٩٧٤، وكانت تقرأ في المهرجانات العامة وأمام الجماهير، وقد طبع كراس خاص لهذه المطالب لتوزيعه على الرأي العام.

كان الإمام يحتفظ ببعض الخرائط الفنية لمشروع إنشاء البحيرات الاصطناعية في أقصى الجنوب، وقد حصلت إحدى المجلات على تحقيق صحفي حول هذا المشروع وطرحت على الإمام العديد من الأسئلة حول بعض نقاط هذا المشروع. وقد أشار الإمام على الخارطة الكبيرة للمشروع وفصل مجالات الفوائد الحيوية كالري ومشاكل التربة والتغذية وزيادة الإنتاج الزراعي وتطور العقلية الزراعية إلى آفاق حديثة.

وكان يحتفظ في مكتبته الخاصة على تقرير بعثة ايرفد الفرنسية برئاسة خبير التنمية الفرنسي الأب لوبريه. وكان الجزء الأول والجزء الثاني من تقرير بعثة ايرفد مزود بالإحصاءات العلمية المتعددة فيها المستوى الصحي والتجهيز الصحي والتقني والسكني والمدرسي والاجتماعي، وهذه الإحصاءات الاقتصادية والاجتماعية والتقارير والأبحاث العلمية والاقتصادية والاجتماعية كان يستحصل عليها من الخبراء الاقتصاديين والأخصائيين. هذه الوثائق التي تهتم بمستقبل لبنان الزراعي والصناعي وقطاع الخدمات والمداخيل للفئات اللبنانية كافة.

وكان يعتقد بأن العمال والفلاحين الذين يساهمون في نمو اقتصادي سنوي يدعم الإنتاج يحق لهم المشاركة في الأرباح بنسبة زيادة الإنتاج الذي

ساهموا في نموه وتطوره، وكان يرى أن العمال الزراعيين هم من طبقة المحرومين وهم يعيشون في ظروف اقتصادية سيئة إذ كانوا محرومين من التقديمات الاجتماعية كالضمان الصحي والضمانات العائلية بالإضافة إلى ضمانات صحية واجتماعية يفتقدونها.

أذكر في آذار ١٩٧٥ أني تعرفت على خبير في الإحصاء يحمل شهادة دكتوراه في علم الإحصاء من جامعة باريس يتكلم العربية بلكنة فرنسية، قضى شطراً كبيراً من حياته في أوروبا وهو مدير الإحصاء في مؤسسة مالية كبيرة. بالإضافة إلى كونه اقتصادياً مطلعاً على الشؤون الاقتصادية في لبنان والعالم. ذكر لي بأنه يعيش مع والدته وأنه أولى اهتماماته أعمال الاحصاء الدقيقة التي يقوم بها وليس له تعامل مع أرباب السياسة اللبنانية ولكنه في الوقت نفسه معجب بالإمام وهو يتردد عليه لتزويده بالإحصاءات اللازمة في المجالات الاقتصادية والمالية وفي بعض الأحيان المجالات الاجتماعية التي يطلبها الإمام لكي يبقى على صلة وطيدة مع التطورات المهمة في البلد. وقد ذكر لي الخبير الإحصائي بأنه يفضل أن يبقى في الظل ولا يحب الخروج إلى دائرة الضوء...

وقد طلب عدم البوح باسمه مهما كانت الظروف لأنه يفضل ذلك. كان لديه العديد من الخبراء في الشؤون اللبنانية الاقتصادية والمالية والاجتماعية والصحية والتربوية وشؤون الجنوب والبقاع والليطاني حتى الشؤون البترولية أذكر مرة بأنه كان يناقش أحد خبراء البترول عن مستقبل المنطقة العربية بالنسبة لإنتاج البترول ومشتقاته.

وكان في طليعة اهتماماته في المحاضرات الاقتصادية التحدث عن الاقتصاد الإسلامي والدراسات والأبحاث التي قدمها ابن عمه السيد محمد باقر الصدر في الاقتصاد الإسلامي والتي تعتبر مرجعاً مهماً للباحثين والدارسين في العلوم الاسلامية.

وكان يتردد على المجلس الخبير والاختصاصي في شؤون الكهرباء ومشروع نهر الليطاني المهندس والوزير السابق جعفر شرف الدين.

وقد ذكر السيد شرف الدين بتاريخ ١٩٧١/١/٣٠ وكان وزيراً للشؤون المائية والكهربائية في تقرير له: «بعد الاطلاع على ما توفر لدينا من مستندات ووثائق وعلى الرغم من مضي أكثر من ١٥ سنة على إنشاء مصلحة الليطاني من أجل تنفيذ مشروع مياه نهر الليطاني والتجفيف أولاً ثم لتوفير مياه الشفة والكهرباء وعلى الرغم من مئات الملايين من الليرات اللبنانية التي أنفقت حتى نهاية ١٩٦٨ والتي بلغت حوالي ٣٠٩ ملايين ل. ل. أظهرت الوقائع التالية:

بدأت دراسة قناة على منسوب ٦٠٠ متراً وأخرى ٨٠٠ متراً ومع ذلك ليست ذات فائدة لكونها لم تتبع الأصول المتبعة في هذا الشأن.

إن الاعتمادات كانت دائماً تخصص للري، بعد الاطلاع على هذه المبالغ يستنتج أن ٥٪ فقط صرفت على الري.

كانت مشاريع الري من الوسائل الرئيسية التي يمكن للدولة أن تستعملها كأداة في تحقيق سياسة اجتماعية إنمائية أقلها ترسيخ الفلاح في أرضه وتأمين الغذاء والعمل لجيش من العاطلين يتزايد باستمرار ويهدد الأمن والاستقرار.

في ربيع عام ١٩٧٢ ألقى الإمام مجموعة من المحاضرات في قاعة المجلس في الحازمية وكان الحضور من كافة الطبقات الاجتماعية والعلمية بالإضافة إلى مجموعة من الطلاب والشباب المؤمن... حصل نقاش واسع ومتشعب حول نقاط عديدة طرحها السيد في سلسلة المحاضرات كان السيد يجيب على التساؤلات والأسئلة في نهاية كل محاضرة.

كان يعمل بطاقة فكرية وكأنه مجموعة من البشر المتخصصين

والباحثين، بالإضافة إلى كونه عالماً دينياً كبيراً... عندما بدأ أولى المحاضرات التي تحمل عنوان «الإيديولوجية» التفت مازحاً إلى من حوله وقال: «سوف نتطرق إلى أفكار وإيديولوجيات اقتصادية... وهذا تجاوز منا لصلاحيات الاقتصاديين»...

«نقول الاقتصاد الإسلامي عندما تعرف أن في الإسلام لا يوجد فصل باسم الاقتصاد لا في القرآن ولا في كتب السنة ولا في سيرة الأئمة أو في سيرة من بعدهم من العلماء».

يتابع الإمام قائلاً «ولكن إذا درسنا الأحكام الإسلامية في العلاقات المالية والإسلامية وإذا درسنا أسلوب الإسلام في الإنتاج والاستهلاك نكتشف مذهباً اقتصادياً ونتأكد من أن الأحكام الإسلامية لم تأت صدفة ولا عفواً بل جاءت مركزة على قواعد اقتصادية معينة، وهذا ما يسمى بالمصطلح الحديث المذهب الاقتصادي لا علم الاقتصاد لأن علم الاقتصاد علم حديث وضعت له الأسس مؤخراً. عندما نقول «الاقتصاد الاسلامي» نقصد المذهب الاقتصادي في الإسلام إن كل باحث عندما يقرأ الأحكام الاقتصادية مثلاً: الميراث وكيفية الحقوق الشرعية من الخمس والزكاة وكيفية الغنائم والأرباح وكيفية ملكية الأراضي ملك خاص أراض مفتوحة... أراض ملك الدولة. عندما يقرأ الباحث هذه الأحكام من هنا ومن هناك يكشف مذهباً اقتصادياً في الإسلام.

والأمر في الإيديولوجية مشابه لما نقوله في الاقتصاد ففي الإسلام لم يرد فصل باسم الإيديولوجية بل لم يرد الإسلام باسم العقيدة لإن الإسلام دين واحد دعا رسول الله الأمة بالطريقة المعروفة في مكة».

ورد في مكان آخر ما يلي عن الماركسية: «إن هذه المدرسة المشهورة تستعين أيضاً بالمنطق الديالكتيكي وبالفلسفة المادية والمدرسة المادية التاريخية تستعين من هنا وهناك وليست متبقية من أصل المذاهب الفكرية.

ويقول أيضاً:

«١ ـ لا نكشف من الاسلام اقتصاداً أو ايديولوجية معينة.

٢ ـ المدارس الفكرية تستعين بالفلسفة من هنا وهناك لتأخذ ما ينسجم مع أهدافها وأفكارها».

يتابع المحاضرة قائلاً: «التطور في المجتمعات كما تقول المادية التاريخية أن تكون الظروف الاجتماعية المحيطة بالمجتمعات مبالغة في تأثير الاقتصاد، لا شك أن الوضع الاقتصادي يلعب دوراً كبيراً في حياة الإنسان لكن بقول أن الوضع الاقتصادي هو كل شيء في حياة الإنسان، هو مبالغة في الأمر.

الإنسان يتأثر بالعامل الاقتصادي ليس هو جميع المؤثرات، فهناك مؤثرات أخرى في حياة الإنسان ولذلك نرى إنساناً من طبقة اقتصادية واحدة مع إنسان آخر يختلف في التفكير».

«لا يمكننا أن نفسر أن حركة التاريخ هي عامل اقتصادي محض بل هناك عوامل أخرى ترجع لطموح الإنسان ولأهدافه وللرغبات السامية لدى الإنسان التي أثرت في تكوين المجتمعات».

«نرجع إلى الفلسفة الإسلامية عندما نقول أن الفلسفة الإسلامية نقصد فلسفة المسلمين لا الفلسفة الإسلامية أو الإيديولوجية الإسلامية.

في الفلسفة الإسلامية مبدأ يقول أن كل موجود مادي مؤلف من صورة ومادة أو بتعبير آخر من هيولى وصورة.

إذن الإسلام مبدئي في موقفه وتفسيره للتاريخ لا يقبل أن الاقتصاد هو المحرك الوحيد بل يقول أن هناك عوامل كثيرة تحيط بالإنسان وبالحكام وبالشعب وتؤثر في تطوير الدولة».

«وعلى صعيد المنطق ليس المنطق الإسلامي هو منطق أرسطو بل

استعمل منطق أرسطو من قبل بعض العلماء المسلمين كما استعمل المنطق الجدلي بأصوله المتنوعة من قبل بعض علماء مسلمين آخرين».

محاضرات ـ الإمام

ـ منتخبات ـ

لماذا تأخر المسلمون
عن ركب التقدم العلمي والمادي؟

نلاحظ أن العالم الإسلامي في جميع المناطق عربية كانت أو غير عربية، لا يعد من البلاد المتقدمة بل تعد هذه المنطقة من العالم بلاداً متخلفة أو بلاداً، بتعبير مهذب، نامية يعني في طور النمو، ودرجات التخلف فيها تختلف، فبعض المناطق متخلفة أكثر من البعض الآخر، ولكن الطابع العام هو التخلف، ولذلك حينما تريد البلاد المتقدمة أن تبعث سفراء أو مندوبين أو ممثلين إلى هذه الدول الإسلامية تمنحهم إضافات في الراتب الشهري بحجة أنهم يعيشون في البلاد المتخلفة التي ليس فيها وسائل الحياة، فما هو السبب؟ هل أن الإسلام يتحمل مسؤولية هذا التخلف في كافة المجالات وعلى جميع الأصعدة من التخلف في الإنتاج والتخلف في مستوى الحياة والتخلف في الأخلاق والتخلف في ممارسة النشاطات الدينية؟ مع أن الله سبحانه أراد العزة لله ولرسوله والمؤمنين وهي مسلوبة في الوقت الحاضر من المسلمين والمؤمنين.

الكسل والتخلف

يوعز بعض العلماء السبب إلى ترك النشاط العلمي بعد أن اجتهدوا في الحقول العلمية المختلفة حيث وضعوا خريطة العالم ووضعوا البوصلة واكتشفوا

قوانين النور وأسسوا علم الكيمياء وسائر المجالات العلمية.

والحقيقة أن هذا الشيء صحيح فإن الإسلام الذي حث المسلمين نحو العمل ودفعهم إلى ساحات النشاط والحركة حيث قال الرسول الأكرم (ص) «ولو أن عبداً مؤمناً قامت قيامته وبيده غرسة لغرسها قبل أن يموت». فإن الفلاح المؤمن الذي بيده غرسة وهو في الحقل وقد باغته الأجل يستحسن الإسلام أن لا يستسلم الفلاح إلى الموت بل عليه أن يتحرك ببذل النشاط في هذه اللحظة الحرجة الباقية من حياته ويغرس الغرسة ويموت.

وقال الإسلام: «العبادة سبعون جزءاً أفضلها العمل» فيعتبر أن العمل أي عمل كان من الزراعة والتجارة والبناء والطبابة والتعليم و... عبادة.

وقال الإسلام: «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً». ويوحي هذا الحديث بأن شؤون الحياة ومخطط الحياة وأسلوب العمران في الحياة توضع على أساس العيش الدائم والحياة الدائمة.

فكان الإسلام قطعة من الحركة والحيوية والنشاط ثم تحول إلى الكسل والإهمال واللامبالاة، فلماذا تأخر المسلمون وتخلفوا عن ركب المدنية والتقدم الاقتصادي والصناعي ولماذا تخلوا عن هذه الحركة وهذا النشاط الدائب واختاروا لأنفسهم الإهمال والسكون؟.

إن المرأة تعد نصف المجتمع الذي يشتغل فيه الرجل، والمرأة لم يتغافل عنها الإسلام فإنها كانت تشتغل في بداية الإسلام على الرغم من ضيق مجال الحياة، ولكنها تحولت إلى عنصر معطل وغدت مهملة جاهلة لا تعرف القراءة والكتابة ولا تقوم بمسؤولياتها الاجتماعية بعد أن كانت عنصراً فعالاً في سبيل بناء المجتمع الإسلامي والنهوض به.

فيأتي السؤال: لماذا تركنا النصف الكامل من المجتمع وأهملناه ولم ندفع المرأة إلى تبوء مقعدها والقيام بوظيفتها وواجبها في الحياة.

الكذب والتخلف

والبعض يوعز التخلف إلى ترك الصدق في الكلام والصدق في الوعد والصدق في التعبير والصدق في العمل، فإن الصدق في الحديث يوازي عدم الكذب، وأن الصدق في الوعد هو تنفيذ الوعد وعدم التخلف، والصدق في العمل هو إتقان العمل، فلا يقلل ولا ينقص ولا يهمل فإن الصدق أساس الإصلاح، فقد قال الله سبحانه وتعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً يصلح لكم أعمالكم﴾** يعني إذا كان قولكم سديداً وصادقاً انتهيتم إلى العمل الصالح وبتعبير أدق القول السديد يوصلكم إلى العمل الصالح، بينما المسلم في هذا اليوم فقد السداد في القول فيكذب ويجاهل خجلاً وخداعاً، ويوعد فيخلف ويعمل فلا يتقن وبطبيعة الحال إذا لم نجد الصدق في الحديث والصدق في الوعد والصدق في العمل فقدنا الأعمال الصالحة.

سأل رجل رسول الله (ص): أنا مبتلٍ بمعاصٍ كثيرة فعلمني طريقة حتى أتجنب معصية واحدة فإني لا أطيق ترك جميع المعاصي، فقال الرسول الأعظم (ص): لا تكذب. والرجل صمم على عدم الكذب ثم عندما أراد أن يأتي بالمنكر تريث قليلاً ودرى بأنه لو فعله، ثم سأله رسول الله هل فعلت هذا المنكر فإن أراد أن يكذب فقد خالف أمر رسول الله وإن أبدى الصدق فقد استحى وبالتدريج انتهى الرجل من جميع المعاصي.

ففي الحقيقة الصدق مصدر لجميع الخيرات وأن الإنسان الذي يكذب أو يخادع لا يحترم نفسه لأن القول والكتابة والشهادة جزء من الإنسان إذ أن الكلمة التي تصدر من اللسان تكون عصارة من الطاقات الجسدية والفكرية التي تفجرت وخرجت مع الكلمة، فمع كل كلمة استهلاك للطاقة الجسدية والفكرية والذي لا يحترم كلمته لا يحترم نفسه.

فإذا قلنا بأن سبب تأخر المسلمين يرتبط بترك الصدق في الكلام والوعد والعمل كان صحيحاً، ولكن يأتي السؤال ويقول لماذا تخلى المسلمون عن الصدق؟

الاستعمار والتخلف

ويعزو بعض آخر سبب تخلف المسلمين إلى الاستعمار وهو صحيح إذ أن للاستعمار الأثر الكبير في مجتمعنا، فهو أضر كثيراً وهدم كثيراً من ثرواتنا المادية والمعنوية، وأساء كثيراً إلى المسلمين فالاستعمار التجأ إلى التحكم في المصير السياسي والمستوى الاقتصادي والثقافي، وكان الاستعمار الثقافي أخطر من الاستعمار الاقتصادي والسياسي لأنه سبيل لصيانة الاستعمار السياسي والاقتصادي وبقائه، ولكن ما هو السبب في تمكين المسلمين للاستعمار من التدخل في شؤونهم والاستحواذ على مقدراتهم حتى أصيبوا بهذا التخلف والتأخر؟.

سبب الأسباب

لقد كانت هذه الأسباب المطروحة لتخلف المسلمين صحيحة ولكننا نفتش عن السبب الرئيسي لمشكلة تخلف المسلمين حيث نقول ما الذي جعل المسلمين يتركون العمل الدائم؟ وما هو السبب الرئيسي لترك المسلمين العلم؟ وما هو السبب لخروج المرأة عن النهوض بمسؤولياتها الطبيعية الصحيحة في بناء المجتمع؟ وما هو السبب الرئيسي لتخلي المسلمين عن الصدق في الحديث والعمل والوعد؟ وأخيراً ما هي علة العلل لتخلف المسلمين إلى الحضيض بعد أن قادوا قروناً طويلة كافة المجتمعات البشرية؟.

الجواب أن الإسلام ككل مدرسة فكرية إنسانية يعتمد على تربية الإنسان، ولا يمكن تربية الإنسان وصيانة إنسانية الإنسان إلا عندما يتوفر للإنسان مجتمع إنساني،يعني إذا أردنا أن نربي الإنسان وأن نجعله عنصراً

صالحاً علينا أن نربيه ثم نوفر له جواً صالحاً لصيانة هذه الإنسانية، ولذلك الإسلام وكل فكرة إنسانية يهتم بتربية الفرد وتشكيل المجتمع فحينما أراد الإسلام أن يربي الإنسان في مكة كان دوره تحضيرياً لتهيئة القادة وحينما انتقل إلى المدينة شكل الإسلام المجتمع الإسلامي لصيانة الفرد. لأنك عندما تربي فرداً عليك أن تحافظ على تربيته بأن تصونه عن طريق خلق مجتمع إنساني، وإلا فالإنسان المتقدم الأكثر إنسانية حينما يترك في مجتمع غير إنساني يذوب وينهار، إذاً لا يمكن أن يبقى الإنسان صالحاً في مجتمع غير صالح.

وعلى هذا الأساس اعتمد الإسلام في بدء أمره على مهمتين رئيسيتين لرسول الله (ص): مهمة الرسالة يعني إبلاغ رسالة الله إلى الناس، ومهمة الولاية يعني تكليف رسول الله بتأمين مجتمع صالح حسب الآية الكريمة: ﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم﴾ ولذلك استلم رسول الله الحكم في المدينة حتى ينفذ إسلامه، أو بتعبيرنا المعاصر ثورته، لأن الإسلام تغيير في جميع أسس الفكر البشري والعمل البشري، تغيير في الرؤية وتغيير في العقيدة وتغيير في العمل وتغيير في الأخلاق، ولأجل صيانة الإنسان الجاهلي إنساناً مسلماً متكاملاً أمن له مجتمعنا إسلاماً صالحاً، المجتمع الذي يجعل الكفاءات تنمو والطاقات الخيرة باقية، والشرور زائلة والعدالة سائدة والحقوق مرعية.

وقد اشتغل النبي الأكرم (ص) على صعيدين: صعيد وضع الأسس السليمة لتربية الفرد، ووضع الأسس لتكوين المجتمع، واعتنى كثيراً بتوفير المجتمع الصالح طيلة عشرة أعوام في المدينة المنورة، ثم كلف من قبل الله سبحانه بإعطاء هذا الدور إلى علي بن أبي طالب (ع) هذا الذي نسميه الولاية. فكان من المفترض أن يكون هناك استمرار لبناء المجتمع الإسلامي لأن الإنسان المسلم الذي تربى كان إنساناً جديداً في العالم وهو وحده يتحدى العالم والعالم

يتحداه، فكان بحاجة إلى مجتمع يصونه في هذا المجتمع، ولكن أخذ منه هذا المجتمع وأصبحت في بعض القرون المتأخرة الخلافة ملكاً وأموال الأمة أموال الملك والوظيفة أصبحت وسيلة الارتزاق والمحاكمات القانونية أصبحت محاكمات كيفية، فسلب المجتمع الإسلامي من الإنسان المسلم وبقي الإنسان المسلم مدة يمشي بقوة الاستمرار ثم سقط في صحاري التاريخ والقرون وبدأ الإنسان المسلم يسقط ويتدهور.

لقد فسرنا التقدم في بعض محاضراتنا السابقة بالتقدم الإنساني، واعتبرنا التقدم الإنساني يعتمد على التقدم المادي والتقدم المعنوي، والإنسانية المتقدمة هي الإنسانية التي تتوفر لها وسائل الحياة الكريمة وتتوفر لها المعنويات والقيم بمستوى التقدم المادي، ومع انهيار أحدهما ينهار أساس الإنسانية، وقد قال الإسلام: «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً» يعني يجب عليك أن تبذل جميع جهدك في سبيل بناء وعمران العالم عمران الحياة، وقال: «واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً» وعليك أن تكون على استعداد دائم للسفر إلى الآخرة، فعليه بالمقدار الذي يهتم الإنسان بالآخرة أن يهتم بالدنيا.

ويعزز هذا الفهم القرآن الكريم حيث يقول: **﴿وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا﴾**، ومعناه أنت حينما تعمر بيتاً، حينما تملك سيارة، حينما تتعلم وتتثقف اقصد الخير في عملك، والإسلام لا يقول بأن البناء والوصول إلى القمر أو اختراع السيارة أو التقدم التكنولوجي أو... دنيا، قد تكون تلك هذه الأمور آخرة. فقد قال الإمام زين العابدين عندما سأله أحد التجار: يا سيدي، إنني ابتليت بالدنيا، فرد عليه الإمام زين العابدين: وما تقصد بالدنيا؟ أجاب التاجر: اشتغل بالتجارة فأربح فأكفل نفسي وأمنعها من التسول وأنفق على أولادي وأساعد أرحامي وأصرف على الجيران، فقال الإمام زين العابدين: هذه هي الآخرة.

فالتقدم الإنساني وكماله يكون في التقدم من مختلف جوانب حياة الإنسان ويعد الغرب الكافر والشرق المسلم متأخرين لأنهما لا يحظيان بالكمال الإنساني في كافة مجالات حياة الإنسان.

الإسلام والعنصرية والطبقية والرقية

ادُّعي أن الإسلام كرس العنصرية كما هو الحال في أميركا من خلال إباحته للرقية والعبودية لعشرات الآلاف من الناس؟

إن الإسلام حارب العنصرية ورفضها رفضاً باتاً، والدليل على ذلك صريح، القرآن الكريم قال: **﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾** والمغزى هو عدم وجود اختلاف بين الشعوب المختلفة ولا يفضل قوم على قوم ولا عنصر على عنصر ولا أمة على أمة ولا قبيلة على قبيلة ولا أحد على أحد ليتعارفوا ويتبادلوا الزيارات وهذا يعني لكي تعرف كل قبيلة قبيلة أخرى ولكي يعرف كل واحد منكم الآخر.

والنتيجة من هذا التعارف هو الكمال، لأنني إذا عرفتك وعرفت ميزتك وخصائصك سوف أقتبس منك وأنت حينما عرفتني وعرفت ميزتي سوف تقتبس مني فتكتمل، فإذن التعارف وسيلة للتعاون، يعني إعطاء العون إعطاء الكفاءة، وهذا الأخذ والعطاء والتعاون سبيل للكمال، ولا غرو إذا قلنا بأن هذا التفاوت في الكفاءات الموجودة لدى كل قبيلة تؤدي في النهاية إلى التعاون والوحدة لأنه لو كانت الشعوب المختلفة متساوية الكفاءات لما احتاجت فئة أو شعب إلى أن تأخذ من الفئة الأخرى أو تعطيها لأنه كان لها ما عند الآخرين ومع التفاوت يندفع الإنسان إلى التعاون والأخذ والعطاء.

تذكروا كربلاء لبنان، كانت في سنتي ١٩٧٥ و١٩٧٦ آلام لبنان

الدامية كانت في تلك الفصول، والآن نحن نعيش لبنان ما بعد المحنة، لبنان ما بعد كربلائه، وهنا نقتبس من سيرة الإمام علي بن الحسين عليهما السلام سلوكاً، نشعر بأن التشنج يضرنا، بأن السلاح يضر الوطن، لماذا؟ لأن الوطن لا يطيق لعبة الأمم ولعبة الكبار على قدم وساق، من كان له ثغرة صغيرة كانت أم كبيرة في جسم هذا الوطن تفوت الأعاصير التي تهدم وطننا وليست لمصلحة شعبنا.

مع كل اهتزاز في جسم هذا الوطن يستفيد الآخرون، أي الأعداء، وأن التشنج، الانتقام، الوسائل الساخنة الحادة، الحرب، السلاح، هذه الأمور ليست اليوم، فاليوم سلوكنا تغيير الأسلوب لا تغيير الهدف، الظلم دائماً قبيح، ولا يمكن أن نقول اليوم أن الظلم جيد وحسن، الحق دائماً حسن فقد خلق الله السموات والأرض وما بينهما بالحق، لكن الكلام في الوسيلة المستعملة هو أسلوبُ الوصول إلى الحق بإزالة السلاح.

السلاح الذي يستعمل في لبنان مئة في المئة تستفيد منه إسرائيل، أي طلقة تطلق في لبنان كأنها تطلق من جبهة إسرائيل على جسمه.

ألسنا في وضع يشبه وضع الإمام زين العابدين عليه السلام الذي اعتمد أسلوب الدعاء والابتهال وأسلوب الاحتجاجات أمام الباطل، أسلوب الاحتجاج الذي لا يصطدم ولا يتنافى مع الوحدة الوطنية لأن الوحدة الوطنية، لأن المصالحة الوطنية، لأن الوفاق الوطني وحده في هذا اليوم يكفل سد الثغرات، لأن أي ثغرة تضرنا وتضر الجميع وتضر الوطن، فبصراحة من اليوم فصاعداً، كل يوم يمر على لبنان ولا يتم الوفاق الوطني ولا يتم حل للمشاكل والصعوبات وإزالة آثار الأحداث فهو يوم ينقص من عمر وطننا ومن عمر المواطنين فيه لأن العواطف تهوج في هذه المنطقة. لأن الكبار يلعبون، ونحن لا

نتمكن من أن نقدم من جسم وطننا ومن جسمنا ومن ممتلكاتنا ومن حياتنا أكثر مما قدمنا للعبة الأم.

وقعنا في اللعبة من دون سبب، وقد مرت المحنة والحمد لله واليوم أمام الفصل الآخر أمامنا سد الثغرات وإلا إذا بقيت الثغرات أقول لكم في هذا المسجد الطاهر، وأقول لمن يسمعني من المصلين في أقطار العالم ومن المستمعين في كل مكان: كل يوم كل ثغرة، كل خلاف كل مشكلة، تبقى في الجسم اللبناني ستستغل للعدو، ولا سمح الله إذا نحن لم نعرف الظروف القاسية التي تمر على وطننا فهناك خطر فناء وطننا إذا لم نعرف كيف نتصرف، لأن اللعبة، لأن المؤامرة لأن التسوية في هذه المنطقة يجب أن تتم فإذا وجدوا المشكلة تتم بأن يأخذوا شيئاً من لبنان لا يتورعون عن ذلك، إذا وجدوا أن طريق الإصلاح قتل مجموعات من لبنان لا أحد يتورع، إذا وجدوا أن إضعاف سوريا مثلاً يخلق مشاكل في لبنان لا يتورع العدو أبداً، إذا وجدوا أن مشكلة الفلسطينيين لا تحل إلا بقطع جزء من لبنان لا يتورع الكبار والأعداء أبداً، على الرغم من أن هذا ليس لمصلحتنا ولا لمصلحة الفلسطينيين ولا لمصلحة أحد.

إذن، في هذا اليوم يجب التمسك، يجب تأجيل الخلافات يجب تغيير أساليب الاحتجاج والمطالبة، يجب خلق المناخ الوطني والكلمة الموحدة التي تقال في وجه العدو والصديق، وفي وجه الرفيق والشقيق، وفي وجه الكبير والصغير من القوى الكونية من القوى السياسية المتفاعلة في هذه المنطقة، وأعتقد أن هذا هو رأي العقلاء وكبار المسؤولين في هذا الوطن.

فنحن نستلهم محاسن يوم الجمعة ونستلهم سيرة علي بن الحسين عليهما السلام ونقول في المكان الذي اعتصمنا فيه قبل سنتين، في هذا المسجد، الاعتصام كان أسلوباً من الاحتجاج والرفض على القتل والدمار

والهدم للبيوت والناس، نقول ونخاطب جميع المخلصين في هذا الوطن أن ينتبهوا إلى العواصف التي تهب في هذه المنطقة «عدونا إسرائيل»، تشترك في هذه العواصف، لأن لها في الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي وأوروبا والسوق الأوروبية المشتركة، في اللجنة الثلاثية، في آسيا، وفي كل مكان عناصر تخلق خللاً في الكمبيوترات وتضع نصائح للتخطيطات والمخططات وكل ذلك.

إسرائيل تشترك في المؤامرة، ولكن نحن لا نقدر أن نشترك في المؤامرة، نريد أن نحفظ رأسنا نريد أن نحافظ على وطننا وعلى كرامتنا، على عزتنا على طموح أبنائنا، على تاريخنا، كل هذه الأمور تتجسد في هذا الوطن إذن في إمكاننا في هذه الفترة تغيير الوسيلة واليوم الوسيلة هي الوفاق الوطني التي تسد الثغرات الموجودة في جسم هذا الوطن حتى لا تهب عبرها العواصف التي تقلع جذور هذا الوطن، هكذا نتبرك بالذكرى ونتعلم منها ونقرأ أن أئمتنا ليسوا قادة في الصلاة والوضوء والعبادة والدعاء فحسب، بل هم الطريق الأفضل إلى الله والطريق إلى الله يمر عبر الناس.

الوفاق الوطني

وحده يسد الثغرات ويصد العواصف

عبادة الله لا تنفصل عن خدمة الناس، والإيمان بالله لا ينفصل عن الاهتمام بشؤون المعذبين.

لا يكفي أن نوجه قولنا وتمنياتنا ومطالبنا نحو المسؤولين، بل علينا أيضاً أن نوجه أفكارنا، آراءنا محاسبتنا، نحو أنفسنا أيضاً، عندما نفكر بأنفسنا نجد أننا بالنسبة إلى اللبنانيين وبالنسبة إلى أبناء المنطقة أكثرهم عذاباً وأشدهم خطراً. الظروف تشكل الخطر من دون شك بالنسبة إلينا، نحن نعلم أن الخطر الذي يهدد لبنان هو الجنوب.

إذا قلنا أن المشكلة في المنطقة قد تحل على حساب لبنان، فإذا لم يتفق اللبنانيون بعضهم مع بعض وإذا لم يلتق العرب والمحبون والمخلصون من قادته بعضهم مع بعض، فالخطر على الجنوب، مستمر.

ونحن نعرف ما يدبر للجنوب من مؤامرات ومن أخطار، مؤامرات قد لا تكون موضع رضى وقبول الناس الذين ينفذون هذه المؤامرة، لكن المؤامرة عندما تأتي تجعل من الإنسان آلة لتنفيذها إذا لم يكن منتبهاً لها، نحن أمام الوضع في الجنوب في إمكاننا بوعينا وانتباهنا ألا نتورط في المؤامرة التي يخطط لها العدو.

إشاعات، كما سمعنا بأن هناك محاولات لإعطاء الجنوب لغير اللبنانيين. المسؤولون في لبنان رفضوا، وسبب رفضهم واضح لأن إسرائيل تطمع في تحجيم الوطن الفلسطيني المرتقب العتيد، الضفة الغربية وقطاع غزة. إسرائيل تريد تحجيم هذا الوطن وتحجيمه عن طريق منع دخول أبناء هذا الوطن إليه، ولذلك تتمسك بالمراكز العسكرية والمراقبة لكي تمنع دخول العدو الذي لا تريده إسرائيل إلى الضفة الغربية وقطاع غزة، وهذا يعني أن إسرائيل تخطط للقضاء على الفلسطينيين وفلسطين لإذابة الوطن الفلسطيني في الجسم الإسرائيلي، ولتشتيت الفلسطينيين في العالم وربما تخلق الوطن البديل عنه.

نحن نعرف أن المخلصين من قادة الفلسطينيين لم يكونوا يوماً ليقبلوا بالوطن البديل، فقد عرضت عليهم أماكن عربية وغير عربية فرفضوا، فالذي يقبل بالوطن البديل، فقد خان قضيته، تنازل عن وطنه وأرضه لذلك ليس وارداً لدى العقلاء والمخلصين والمناضلين من إخواننا أن يقبلوا الوطن البديل، لكن طرح هذا الموضوع وخلق القلق في النفوس وخلق المشاكل بين الناس وارتكاب الأعمال الشاذة المستنكرة بين حين وآخر من عناصر مشبوهة، هذه

الأمور تهدد بالانفجار، فعندما نوجه نداءنا إلى أنفسنا وتفكر في مسؤولياتنا علينا أن نتنبه بأن مؤامرة مستمرة لم تزل تهب لخلق الفتن والمشاكل والاصطدامات في الجنوب.

وكما قلت لكم أي طلقة تطلق اليوم في لبنان، فكأنها أطلقت من الجهة الإسرائيلية على الجسم اللبناني، أي ثغرة تستغل، لذلك لا بد من الانتباه ونحن وكل مخلص للقضية الفلسطينية وقبل كل شيء إخلاصنا لوطننا، يتطلب رفض الاستيطان وضرورة تنظيم العلاقات اللبنانية ـ الفلسطينية، ضرورة تنظيم الوجود المسلح الفلسطيني ضمن الاتفاقات الموجودة، وبسط السيادة اللبنانية على الجنوب ووصول الجيش إلى الحدود وانتقال المهجرين إلى قراهم وبداية ممارستهم للأعمال الطبيعية، ليست من الحياة الكريمة طريقة عيش المهجرين اليوم في مواسم الشتاء والبرد والأمطار، بعدهم عن أعمالهم وأراضيهم حتى ولو قدمت لهم المساعدات، ليست من الكرامة ولا يمكن لمسؤول أن يقبل بهذا للإنسان اللبناني الذي كان يعلم العالم الثقافة والحضارة والتجارة والعمل، فالذي يذهب إلى أفريقيا وإلى أميركا الجنوبية يرى أن اللبنانيين في وسط الغابات وحدهم يخوضون المجاهل ويؤسسون الحياة الكريمة ويرفعون طموحات الأبناء إلى المناطق المهجورة ولا يكتفون بثمار الأحراج والغابات، كيف يمكن أن نقبل لهم بأن يتصدق عليهم أو أن يكونوا بعيدين عن أعمالهم وعن أرضهم وعن شؤونهم؟

بطبيعة الحال، في الخطوة الأولى، يجب أن نأخذ نحن زمام الموقف المطلوب منا كأبناء الجنوب أن نرفض الاستيطان، أن نرفض التآمر الذي يقصد خلق المحن والتشنجات والصدمات في الجنوب، أن نرفض الأعمال الشاذة، أن نطالب بتنظيم العلاقات والوجود الفلسطيني وبسط السيادة اللبنانية، وعلينا قبل كل شيء أن نوحد صفوفنا، أن نؤجل كما ذكرت خلافاتنا المحلية

والقروية والمنطقية وألا نسمع الإشارات الآتية من الخارج.

أيها الأخوة الأعزاء،

أنا أبدأ بنفسي وأقول لجميع الإخوان: كل من يرفض اليوم الوفاق الوطني فهو يخدم العدو، أعداء لبنان، وهو عنصر في يد القوى الكبرى الدولية التي تعالج مشكلة الشرق الأوسط، كل من يرفض الاتفاقات في القرية في المدينة، في المنطقة يخدم المخطط الخارجي، اليوم يوم الوفاق، يوم اللقاء، يوم الهدوء، يوم معالجة الأمور بأسلوب علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام، فنسأل الله أن نهتدي وأن نتبرك وأن نستلهم من يومنا هذا، فنضع خطاً لأسبوعنا القادم ولأسابيعنا القادمة بإذن الله في هذا السلوك والله سبحانه وتعالى هو الموفق والمعين».

وكان سماحة الإمام الصدر في مستهل خطبته الدينية، قد اعتبر أن المصادفة في مقارنة ذكرى الإمام علي بن الحسين مع يوم الجمعة، وما في حياة الإمام من عبر ومواقف تلائم وضع لبنان ما بعد المحنة، إن هذه المصادفة تجعل هذا اليوم بداية فصل جديد من حياة المؤمنين ومسؤولياتهم، بل وفي حياة جميع المواطنين، فصل يمتاز بطابع خاص مارسه الإمام زين العابدين في جميع حياته بعد واقعة كربلاء.

وقال: «الإمام لم يتراجع عن الأهداف التي استشهد الحسين من أجلها ولكنه اختار وسيلة أخرى تتناسب مع مرحلة حياته لتحقيق الأهداف نفسها والوسائل هذه كانت تتلخص في الأمور الروحية والتربوية والتعامل المعنوي السامي مع الناس بأساليب هادئة ومعبرة ومثيرة ولذلك كان بكاؤه احتجاجاً وأدعيته مجموعة من المعارف والتوجيه الاجتماعي والأخلاقي، وبكلمة مختصرة كان الإمام يتابع نضال الحسين وجهاد آبائه بأسلوب سامي».

الإنسانية مقياس تقدم المجتمع وتـاخره

ما هو مقياس التقدم والتأخر؟

من دون أن نفلسف كثيراً ونتعمق كثيراً بإمكاننا أن نضع المقياس للتقدم والتأخر. ونلخص المقياس في كلمة واحدة هي الإنسانية فطالما أن المجتمع يتكون لأجل الإنسان نتمكن من تفسير المجتمع المتقدم بالمجتمع الأكثر إنسانية وتفسير المجتمع المتخلف بالمجتمع الأقل إنسانية، أما تقدم الصناعة تقدم التنظيم، تقدم الأسلحة الفتاكة، كثرة البنايات، كثرة الملابس، كثرة السيارات، فهذه طرق ووسائل للتقدم الإنساني.

إذا افترضنا أن مجتمعنا قد حاز تقدماً باهراً في العلم والتكنيك والتنظيم ولكنه لم يقطع شوطاً إلى الأمام على الصعيد الإنساني، لم يكن هذا المجتمع متقدماً، لأن المجتمع قد أنشأ وتكون لأجل خدمة الإنسان، فإذا لم تتقدم الإنسانية، ولم تتطور، لم يكن ذلك المجتمع موسوماً بالمجتمع المتقدم المتطور.

ومن هذا المنطلق والمقياس أشك ولا أوافق على نعت الولايات المتحدة التي هي في قمة التقدم العلمي والتكنيكي بالبلد المتقدم، لأن المقياس الذي وضعناه لا ينطبق على الولايات المتحدة أو الاتحاد السوفياتي أو بريطانيا أو ألمانيا أو مع أي بلد آخر.

نحن إذا تعمقنا في وضع هذه الدول وعلى سبيل المثال الولايات المتحدة ولاحظنا تقدمها الصناعي والعلمي، ثم ألقينا نظرة على الإنسان الذي يعيش هناك، الإنسان المطلق لا الإنسان الخاص في إقليم أو عنصر أو لون، لمسنا فيها مشاكل إنسانية أكثر من البلاد التي نسميها بالبلاد المتخلفة.

مثلاً التفرقة العنصرية في الولايات المتحدة مستتبة ومتحكمة.

قد تقول أن القانون لا يفرق في الولايات المتحدة بين الأبيض والأسود ولكن أعتقد أنه غير صحيح إذ أن القانون في بعض الولايات يفرق بين الأبيض والأسود.

ولو افترضنا بأن القانون لا يفرق، لكن يكفينا حجة على المشاكل في الولايات المتحدة أن الشعب يفرق بين الأبيض والأسود، ومحتوى هذه التفرقة بين الأبيض والأسود هو عدم الاعتراف بإنسانية الإنسان. ولو كان مطلق إنسان لا الإنسان المتأقلم بإقليم أو المتحدر من عنصر خاص مكرماً لما كان هناك فرق بين الأبيض والأسود.

وإذا كرمنا الإنسان الأبيض كرمنا العنصر لا الإنسان، وإذا شئنا أن نكرم الإنسان المطلق لما فرقنا بين الأبيض والأسود.

ومشكلة التفرقة العنصرية في الولايات المتحدة معروفة وموقف الولايات المتحدة من الدول النامية أو الضعيفة أو البلاد المستعمرة أو البلاد الآسيوية أو الأفريقية ينعكس تماماً في فيتنام وفي الشرق الأوسط و«إسرائيل» وأفريقيا وأميركا اللاتينية، فما الفرق بين الإنسان الأميركي الذي يكرم والإنسان الفيتنامي أو الأفريقي أو الأميركي اللاتيني أو العربي الذي لا يحترم ولا يكرم؟ وتمجيدها للإنسان الأميركي ينبثق من تمجيدها للعنصر لا للإنسان، تماماً مثل بعض القبائل العربية أيام الجاهلية قبل الإسلام حيث قالوا عنها أنها كريمة تكرم الضيوف، والحقيقة أن كرمها كان بدافع الأنانية ولم يكن كرماً

بدليل أن الضيف كان يتمتع بالتكريم حينما كان في بيت هذا الرجل، وإذا غادر البيت سطا عليه صاحب البيت وسلبه وقتله، ومثل هذا التكريم لا يعد تكريماً للإنسان وإنما يكرم نفسه لأنه يعتقد متى دخل داره أحد استحق التكريم والضيافة وإذا تركها وخرج منها سقطت عنه هالة التكريم وهذا ليس تكريماً للإنسان...

موقف الولايات المتحدة تجاه الأموال والشركات واستثمار البشر واستخدام العمال على ضوء العلم والصناعة والتنظيم معروف، فالعلم والتكنيك أوصلاهم إلى القمر، والتنظيم الدقيق عندهم بلغ مستوى أن الشركة الواحدة تدير خمسة عشر مليون عامل في منتهى الدقة، وهذا مكسب من مكاسب الحضارة الحديثة، ولكن هل الإنسانية تقدمت بنفس النسبة؟ أنا أشك في أن يكون الجواب إيجابياً، وبصورة موجزة: إن الحضارة المادية الحديثة لم تتمكن بعد أن تسعد وتخفف آلام الإنسان وتعالج مشاكل الإنسان ككل.

هل الإنسان المتحضر يتألم بآلام الآخرين؟ وهل أنه يرغب في خدمة الإنسان بعيداً عن التعويض؟

وهل الضمير الغربي المعاصر يتألم أمام الظلم في المناطق المتخلفة في العالم؟ أنا أشك في ذلك وبهذا المقياس أيضاً أشك في تصنيف العالم إلى البلاد المتقدمة والمتأخرة.

الشرق على الرغم من أنه لا ينتج السيارات ولا يعمل القنابل وليس عنده تكنولوجيا أو تنظيم كما هو عند الغرب، ولكن على الأقل توجد في الشرق الأحاسيس الإنسانية بصورة جزئية.

فالشعور العائلي والشعور بالضيافة والشعور بالتعاون والتألم لآلام الآخرين والإخلاص النسبي والإيمان بالصدق و... هذا معناه أن الإنسانية في الشرق متقدمة أكثر من الغرب بالرغم من أن العلم والصناعة والتنظيم متقدم في الغرب ومتخلف في الشرق.

إن التقدم العلمي والتكنيكي والتنظيمي لا يرتبط بنوعية الدين أبداً. فالعالم الإسلامي لا يعد من البلاد المتقدمة بل يعد من المناطق المتخلفة أو بتعبير مهذب يعتبر من البلاد النامية، ومستوى التخلف في هذه البلاد يختلف من منطقة إلى أخرى ولكن الطابع العام هو التخلف، ولذلك حينما تريد البلاد المتقدمة أن تبعث سفراء أو مندوبين أو ممثلين إلى هذه المنطقة، أضافوا على أجورهم بحجة أنهم يعيشون في البلاد المتخلفة التي ليس فيها وسائل الحياة، إذ لا نجد في هذه المنطقة بلاداً مصنعة أو مصدّرة مواداً صناعية ويستعان بها لخبرائهم وعلمائهم في حين أن قسماً من العالم المسيحي مثل أميركا وأوروبا متقدماً.

ويطرح السؤال نفسه: هل أن نوعية الدين تبعث على التقدم العلمي أو التخلف؟ وهل الدول الإسلامية المتخلفة في الإنتاج وفي مستوى الحياة وفي الأخلاق وحتى في ممارسات النشاطات الدينية، أي الواقع المؤلم الذي نعيشه والذي لم يرد الله ذلك لنا لقوله تعالى أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين[1] من نتاج الإسلام.

الحقيقة أن الشيء الذي نعرفه أنه في العالم مناطق مختلفة، متقدمة ومتأخرة، غير مرتبطة بنوعية الدين فهناك بلاد غير متدينة مثل الاتحاد السوفياتي والصين متقدمة، وهناك بلاد تتدين بدين آخر غير المسيحية والإسلام مثل اليابان متقدمة، وهناك بلاد مسيحية متقدمة وبلاد مسيحية متخلفة مثل الحبشة التي كانت مسيحية قبل أوروبا، وهناك بلاد إسلامية في التاريخ كانت في منتهى الرقي والتقدم، فنحن نجد في تاريخنا قبل القرن الخامس الهجري تقدماً هائلاً في المجتمعات الإسلامية، ومن أراد أن يطلع على ذلك فليقرأ كتاب «تاريخ التمدن الإسلامي» لـ غوستاف لوبون وكتاب «تاريخ تمدن

---

(١) الآية القرآنية هي: (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين)، سورة المنافقون الآية ٨ .

العرب» للأستاذ جرجي زيدان أو كتاب «مختصر تاريخ العرب» للسيد أمير علي الهندي وغيرها من الكتب فيشهد بأن المجتمعات الإسلامية كانت في منتهى التقدم العلمي والتكنيكي والتنظيمي والإنسائي.

وعلى سبيل المثال أذكر لكم بعض العلوم الحديثة التي تأسست في المجتمعات الإسلامية، علم الكيمياء كان موجوداً لدى اليونانيين كنظرية وفلسفة حيث كانوا يؤمنون بأن أساس جميع الموجودات واحد فيمكن تحويل الرصاص إلى ذهب والحديد إلى فضة و... أما تطبيق هذه النظرية وتبديل الفلسفة إلى علم الكيمياء فكان من شغل المسلمين وإنتاج المجتمعات الإسلامية، الجبر، الجراحة، خريطة العالم، البوصلة، اكتشاف الدورة الدموية، قوانين النور، انكسار النور، انعطاف النور ومئات من الاكتشافات العلمية كان من إنتاج المسلمين والمجتمعات الإسلامية.

كان قبل ألف ومائتي سنة في دمشق ـ الشام ـ نظام توزيع المياه، نهر بردى كان يقسم إلى أربعة أقسام في أربع برك كبيرة في أربع مناطق حول دمشق وكانت المياه تدخل في كل بيت من تحت الأرض لتنظيف البيوت فكان نظام المياه الذي هو من آثار الحضارة الحديثة موجوداً في الشام.

كيفية بناء البيوت وكيفية الزراعة والمستشفيات العقلية والعصبية كانت موجودة ومتوفرة في مصر بعد دخول الإسلام، هناك عشرة أضعاف ما كان عليه قبل الفتح الإسلامي.

ولم يكن الإسلام حينما يدخل بلداً جديداً يستعمر له، إذ أن الجيش الإسلامي يفتح البلد ويدعو أهلها إلى الإسلام، فإذا أسلموا أسلم إليهم الحكم وإذا لم يسلموا نصبوا معهم إنتاج البلد وأرباحه وثرواته كما تفعل البلاد الاستعمارية الحديثة... والجزية التي كانت تدفع لم تكن بأكثر من الضرائب التي كان يعطيها المسلمون لحكومتهم المسلمة... كل ذلك كان في البلاد

الإسلامية في القرون الأولى من الهجرة. وفي هذا الوقت كانت أوروبا تهجع في التخلف والانحطاط، وعندما تنكر قادة الحضارة الحديثة للدين في أوروبا بدأوا بتأسيس الحضارة المادية الحديثة.

واستحصلنا من هذا العرض السريع بأن التقدم العلمي أو التخلف لا يرتبط بنوعية الدين أبداً.

السلام محتوم بين الإسلام والمسيحية

أيها اللبنانيون،

في هذا الوقت من السنة ٦١ الهجرية، كان الحسين بن علي عليه السلام قتيلاً مع جميع أهله وأصحابه، وكانت أجسادهم المحطمة على أرض كربلاء عرضة لهبوب الرياح الساخنات مكشوفة لاشعاعات الشمس المحرقة ولجولات الرمال المتحركة بينما كانت عائلته وعائلة كل من كان معه تستعد للسبي والرحيل في أقسى الظروف إلى البلاد النائية.

وفي هذا الوقت، وفي المكان نفسه كانت تنبت رايات الثورة العاتية التي ترعرعت ثم عصفت بحكم الطغاة وزلزلت عروشهم فاجتثت آثارهم الأرض والتاريخ.

لم تكن هذه الثورة التي انطلقت من كربلاء وعمت الأنفس وانتقلت إلى الآفاق القريبة والبعيدة إلا بعض آثار استشهاد الحسين وبعد شعلة محددة من المشعل الحسيني الذي انتصب بعد منتصف القرن الهجري الأول.

إن الساحة الحقيقية التي ولدت فيها معركة عاشوراء هي ساحة القيم الإنسانية التي لا تنفصل عن الإيمان، أما أبعادها فإنها تمتد مع الإنسان ومع حياته أينما كان ومتى يكون، تحطم جدران سجن ذاته وتربطه بينه وبين بني

نوعه وتخلق منه وجوداً كبيراً يفوق حدود الزمانية والمكانية ويتجاوز قدراته وكفاياته.

والحسين باستشهاده صان القيم وبموته أحياها وبدمه أبرزها ورسمها على جبين الدهر ثم أدخلها في أعماق القلوب والعقول بعدما هزها وفجرها بالفاجعة.

إن الإنسان المعاصر للحسين كان يعيش أقصى درجات الانحراف العام الذي بدأ بانحراف الحكم ثم امتد إلى كل قطاعات المجتمع وانتقل أخيراً إلى النفوس وهزم الضمائر أو سخرها واشتراها أو سيطر عليها وضلعها.

الخلافة المسؤولة أصبحت الملك الموروث الذي يحكم بما يشاء ويفعل ما يريد، والجهاد الذي كان باباً من أبواب الجنة تحول إلى مغامرة تجلب الأرزاق وإلى باب للارتزاق.

الأموال العامة انتقلت من بيوت المال إلى خزائن السلطان، والمراكز تحولت من الأكفياء الأتقياء إلى أزلامه، لا قيمة للإنسان ولحريته ولحياته عندما يغضب عليه الحاكم. وقد يتعرض لحملة حديث مختلق ومن مرتزق أدرك العصور الأولى، تجري هذه الأحداث وتجري المنكرات والبدع وتتكرر ولا تجد أمامها معارضاً أو معترضاً أو متسائلاً على الأقل.

أما في هذه السنة وفي لبنان فإن الذكرى تأخذ أبعاداً جديدة أخرى هي من طبيعة التفاعل بين التاريخ والجغرافيا في القضايا التي ترتبط بحياة الإنسان العامة، فبعد المحنة الداخلية التي استشهدت فيها القيم وهي التي أحياها استشهاد الحسين (ع).

ها نحن عشية الذكرى وكأنها التذكير الخاص من الله خالق الأنام ومدبرها ومرسل الرسل وشرائعهم، تذكير لنا في لبنان يعلمنا كيف نعالج محنتنا، نضمد جروحنا، نوحد صفوفنا، ونجابه أحداث المنطقة.

إن العناية الإلهية ترسم لنا الخطة بالذات بنداً بنداً: التضحية بالآراء، بالمواقف، بنتائج الأحداث وحتى بالمصالح الذاتية والفئوية لنحيي القيم، فهي وحدها تجمع وتوحد وتوسع وجود الإنسان وتخلده ومع التوجه إلى حياة القيم يولد السلام في الآفاق والأنفس، في السماء والأرض والناس.

والسلام هذا لقاء تاريخي محتوم بين المسيحيين والمسلمين لأن اللقاء كان تاريخياً محتوماً بين الإسلام والمسيحية خصوصاً عندما تظهر الصهيونية في الأفق تكشف عن أنيابها وتمد أصابعها، لا لكي تشعل نار الطائفية في بلدنا وفي منطقتنا فحسب فتحولها إلى مخازن التفجير ومواطن الدويلات الطائفية، ولا لكي تشوه هذه الصهيونية، دينها السماوي التي تحترمه وتقدس رسوله الأمين فحسب، بل لكي تلعب بتراث المسيحية والإسلام معاً وبتاريخهما وحضارتهما وثقافتهما وقيمهما مرة أخرى.

مع فارق كبير هذه المرة، أن المتلاعب دولة تستقطب جميع الأفراد والمؤسسات وتستعمل كل التجارب السابقة وتستعين بالمضللين في العالم وهم الكثرة الساحقة من البشر.

إن ذكرياتنا هذه السنة وفي لبنان على الأخص، تحمل إلينا البشارة الإلهية وتتلو علينا الآيات الكريمة التي تؤكد أن أقرب الناس إلى المسلمين هم المسيحيون وأن اليهود الصهاينة والمشركين هم الأبعد وتأمرنا بالتضحية ليولد السلام والحب والقيم وبالتضامن الوطني التام لنصون وطننا وجنوبنا الحبيب المهدد وكل ما نملك أمام الأخطار المحدقة بنا، ولنحمي ظهر أشقائنا الذين أبوا إلا أن يأخذوا السلام العادل الشريف، لا أن يعطوا السلم الإسرائيلي المشبوه.

ولكي نوجه أخيراً إخواننا الذين يتصدون لتحرير الأرض والقضية العادلة نوجههم في العصيب هذا إلى التفرغ لتحرير الأرض والقضية العادلة، فنقدم لهم عند ذلك حبات قلوبنا وثمرات عقولنا وجهدنا ودعائنا.

فيا أيها الإخوة، إلى التضحيات، إلى السلام، إلى الوفاق الوطني إلى القيامة اللبنانية والتصدي لكل ما يحول دونها أو يشوهها أو يختنقها نذكركم بأنه لا وجود لإنسان حقيقي دون قضاء ودون عدالة.

قال سماحة الإمام: التعاليم الدينية تؤكد أن الكون قائم على أساس العدل والحق وتؤكد أيضاً أن العلاقات القائمة بين الموجودات هي علاقات منظمة في غاية التنظيم، وأن الكون يتحرك بانتظام نحو الأفضل.

القرآن الكريم بعد التأكيدات في سورة الرحمن يقول: **﴿والسماء رفعها ووضع الميزان﴾**.

ما معنى وضع الميزان عند ارتفاع السماء، سوى التعبير على أن كل شيء في هذا الكون موزون ودقيق ومنظم.

وفي القرآن الكريم أيضاً: **﴿وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين ما خلقناهما إلا بالحق﴾**.

والكون سائر نحو الحق والعدل، لأن الكون خلق على صورة خالق في صفاته وأسمائه... والخالق العادل، خلق الكون القائم على أساس العدل.

﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط﴾.

هذه هي الصورة التي يعطيها الدين عن الكون: عالم في غاية التنظيم، وكل شيء فيه موزون، وكل شيء حسب له حساب ووضع له قدر. أما الشذوذ الذي نشاهده في الكون كالزلازل وبعض مظاهر الفوضى والأحداث مثل الطوفان وأمثال ذلك فلهذه أيضاً قاعدة، والقاعدة حسب ما نفهم من التعاليم الدينية هي المزيد من التأكيد على الإنسان للسيطرة على الكون وعلى القوى الكونية...

فالإنسان منذ البداية لو لم يواجه البرد والحر والعدو لما كان يسعى ويبذل

جهده للتغلب على هذه المشاكل، ولما كان مسرعاً في طريق اكتشاف الحقائق.

وجود الزلازل والمحن سياط على كاهل الإنسان يحضه على السعي الزائد في سبيل المعرفة. ووجود الأمراض سوط على الإنسان حتى يتحرك بسرعة لأجل اكتشاف الحقائق والعوامل الكونية والسيطرة عليها.

فالكون بأجزائه وقواه وتحركاته ومستقبله قائم على أساس العدل والحق.

والعدل وضع الأمور في نصابها ووضع الأمر في موضعه.

هذه هي الصورة الكونية التي ترسمها الأديان السماوية، وهذه الرؤيا أو هذا التفسير الديني عن الكون هو تفسير تربوي يقال لنا حتى نطبق حياتنا على ضوء هذه الرؤيا وحتى ننسجم في سلوكنا مع التحرك الكوني ومع الوضع الكوني العام.

ولهذا نجد أيضاً بعد الآية الكريمة التي تلوناها **﴿والسماء رفعها ووضع الميزان﴾**: **﴿ألا تطغو في الميزان﴾**.

أيها الإنسان، إذا أردت أن تنجح، وإذا أردت أن تخلد وإذا أردت أن تستفيد وأن تكون منسجماً مع الكون بعوامله وبطاقاته، وبقواه، يجب عليك أن تكون عادلاً في سلوكك، منظماً في حركاتك، ومتزناً في تصرفاتك، وهكذا نجد أن هذه الرؤية الكونية توحي للإنسان بأن يجعل عمله منسجماً مع خلق الكون وقوى الكون.

فهرس المحتويات

الفصل السادس

الفصل السابع

• محاضرات الإمام (منتخبات)

الإمام الصدر

السيرة والفكر

ـ لقد عرض المؤلف في هذا الكتاب أفكاراً عن شخصية سماحة الإمام السيد موسى الصدر وطريقة عمله وخلاصة تفكيره خلال فترة عام ١٩٦٩ ـ ١٩٧٥ إستناداً إلى إجتماعات عمل برئاسة سماحة الإمام ولقاءات سمعها المؤلف مباشرة بصفته رئيس دائرة الأوقاف والشؤون المالية.

هذه الذكريات والمعلومات التي يسجلها المؤلف تؤدي الى عرض الواقع الاجتماعي قبل الحرب وهي تتسم بالوصف الموضوعي للخطوط الاجتماعية التي تسوس التاريخ اللبناني في تلك المرحلة.

إن اللبناني الى أي جهة انتمى يستحق ان يعرف شخصية سماحة الإمام الرئيس المؤسس للمجلس الإسلامي الشيعي الأعلى وجوانبها الفكرية والاجتماعية والإنسانية بعيداً عن السياسة.

ـ عن الكاتب:

باحث ومؤلف من مواليد النبطية.

ـ حاصل على إجازة حقوق من الجامعة اللبنانية.

ـ درس التنمية على يد البروفسور الفرنسي «غاستون لي دوك» في جامعة باريس بالاضافة الى دبلوم الدكتوراه في العلوم الاقتصادية.

ـ له عدة مساهمات ومقالات اقتصادية واجتماعية بالعربية والفرنسية.

مؤلفاته:

ـ قضايا التنمية في لبنان اصدار ١٩٧٨ .

ـ «الظروف الاقتصادية للحرب اللبنانية» اصدار ١٩٧٩ .

ـ الظروف الاجتماعية للحرب اللبنانية اصدار ١٩٧٩ .

ـ علامات من العقلية اللبنانية والعربية ـ ١٩٨٩ .

ـ الحرب اللبنانية اسباب ونتائج ١٩٩٢ .

عدنان فحص